

فريق
متميزون
E-BOOK

حكايات من العالم الآخر

م. عبد الوهاب السيد الرفاعي

نوفا بلس للنشر والتوزيع
الطبعة (13)

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل لهذا الكتاب

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

حكايات من العالم الآخر

عبد الوهاب السيد الرفاعي

تنويه

يسألني القراء باستمرار ودون توقف عن مدى واقعية القصص التي أكتبها.. ولهؤلاء الأعزاء أقول: أعتذر بشدة عن الإجابة لأسباب لا مجال لذكرها.

ليلة سوداء

إنها ليلة سوداء بحق.. ليلة لا تصدق.. ما زال ذهني مشتتا.. وما زلت عاجزا عن تصديق ما حدث!!.. ربما.. ربما يجب أن أحدثكم عن نفسي أولا.. فأنا شاب يتيم لا أملك شيئا في هذا العالم إطلاقا!!.. بل لا أملك حتى الشهادة أو الوظيفة التي تؤمن لي معيشة طيبة!!.. ومع صحبة السوء.. بدأت أدخل عالم السرقات!!.. فأصبحت منعزلا تماما عن العالم.. أنام طوال فترة النهار.. وفي وقت متأخر من الليل أكسر نوافذ السيارات لأسرق كل ما يوجد فيها من هواتف نقالة أو نقود أو أجهزة الكمبيوتر المحمول.. أو حتى العملات المعدنية التي يضعها غير المدخنين عادة في مطفأة التدخين!!.

كنت أسرق من مختلف المناطق حتى تصعب عملية البحث عني من قبل رجال المباحث.. فأحيانا أكون في منطقة (الجهراء) وأحيانا أخرى في منطقة (الجابرية) البعيدة كل البعد.. وهكذا!!.. حتى جمعت ما يقارب العشرة آلاف دينار في سنوات قليلة دون أن يقبض علي رجال المباحث!!.. لقد كنت أنوي ممارسة ما يطلق عليه اسم (غسيل الأموال) ولكن على نطاق ضيق بالطبع وأن يكون هذا خارج (الكويت).. وغسيل الأموال -إن كنت لا تعلم -هو استغلال أموال يحصل عليها الإنسان بطريقة غير قانونية لعمل مشروع تجاري قانوني ([1])!!.

كانت الأمور تسير على أفضل وجه قبل أن تحدث الكارثة!!!.. ففي ذات يوم كنت في أحد مطاعم الوجبات السريعة في منطقة (السالمية) عندما وقعت عيناي على محفظة رجل كان يخرج منها بعض المال ليدفع فاتورة طعامه.. كانت المحفظة مكتظة.. مليئة بالأوراق المالية!!.. كنت واثقا أنها تحوي ما لا يقل عن 400 دينار وربما أكثر!!.. ووجدت نفسي مفتونا مسحورا أتبع ذلك الرجل إلى خارج المطعم.. تبعته سيرا على الأقدام وهو يبحث عن سيارته في موقف السيارات..

وفجأة.. وجدت نفسي أهجم على الرجل بمطواة صغيرة أحملها معي دائما لفتح أبواب السيارات!!.. ورحت أهدده بكلمات مخيفة واضعا المطواة بالقرب من رقبته ورائحة الخطورة تفوح من كلماتي!!.. لكن الرجل كان قويا شجاعا بحق!!.. إذ لم يفاجَأ بهذا الهجوم.. بل -بالمقابل- أمسك بيدي الممسكة بالمطواة ولفها خلف ظهري قبل أن يأخذها مني ويدفعني بقوة!!.. هنا جن جنوني!!.. فهجمت على الرجل مرة أخرى ورحنا نتبادل الضرب قبل أن أنتزع منه المطواة.. و.. و.. أدخلها في معدته!!!.. إنها تلك اللحظات التي تتشاجر فيها ثم تفكر بفداحة ما فعلت!!!.. تحولت لحظات الشجار في ثانية واحدة إلى رجل ممدد على الأرض تنزف معدته بغزارة!!.. وبالطبع لا بد أن يراني أحدهم بعد كل هذه الضجة!!!.. فقد كان هناك بعض الأولاد المشاكسين الذين شاهدوا ما حدث!!.. فقاموا بالصراخ لجذب انتباه المارة.. و.. من دون تفكير أطلقت ساقي للريح.. جريت كما لم أجرِ من قبل والهلع يسيطر تماما على عقلي!!.. المصيبة أن هؤلاء المراهقين رأوا وجهي جيدا.. بل إن بعضهم تحمس لمطاردتي.. فرحت أركض متجها إلى العمارات السكنية التي تكتظ بها منطقة (السالمية) حيث أستطيع الاختباء هناك.. و.. ظللت أدخل من حي إلى آخر إلى أن تمكنت أخيرا من الهرب لأصل بعدها إلى شارع (عمّان) الشهير حيث شقتي القديمة المتهالكة والرعب يسيطر على كل ذرة من كياني!!.

جلست ساعات طويلة في شقتي وجسدي يرتجف بقوة!!.. يجب أن أفكر بعواقب ما فعلت.. لقد طعنت رجلا.. ربما سيموت.. على الأرجح سيموت!!.. فقد كان ينزف بغزارة!!.. يا للهول.. لم

أرَ في حياتي كل هذه الدماء.. لقد كان هذا مخيفا.. ثم.. ثم إن العشرات من الناس قد رأوني ورأوا ملامحي جيدا!!.. اللعنة!!!!.. إنني لفي مأزق رهيب!!.. آه!!.. لقد نسيت!!.. المحفظة.. لقد سرقت محفظة ذلك الرجل لحسن الحظ.. من المستحيل أن أفعل كل ما فعلت دون سرقة المحفظة.. أخرجتها من جيبي بلهفة.. وكما توقعت تماما!!.. كانت تحوي حوالي 450 دينارا.. مصروف شهرين -أو ربما أكثر- في جيبي الآن!!.. جلست ليلتها أفكر بما يجب فعله.. قبل أن أصل إلى حل منطقي جدا.. الهروب من البلد!!.. إنني أخطط منذ مدة طويلة أن أعيش في إحدى دول الخليج.. ربما (دبي) حيث تذوب فيها جميع الجنسيات أو ربما (سلطنة عمان) حيث أستطيع هناك أن أبدأ تجارة صغيرة دون أن ألفت انتباه أحد.. ولكن مهلا!!.. كيف سأخرج من البلد؟!.. لا شك أن رجال الشرطة الآن يعرفون ملامحي!!.. لن يكون الخروج سهلا على الإطلاق!!.. ثم إن ذهابي لدول الخليج لن يكون هروبا حقيقيا.. فقد تسلمني السلطات هناك للسلطات الكويتية في حال كشف أمري.

ظللت أفكر وأفكر ثم تذكرت أمرا هاما!!.. لدي صديق يعرف العديد من المزورين والنصابين!!.. ربما لو عرضت عليه مشكلتي.. قد يتمكن من إيجاد حل.. راقت لي الفكرة.. فخرجت مسرعا متجها إلى أحد البقالات كي أتصل بصديقي.. لم أشأ استخدام هاتفي النقال.. فقد أصبت بجنون البارانويا.. أخشى أن يتعقب رجال الشرطة هاتفي!!.. اتصلت بذلك الصديق من هاتف البقال ورجوته أن يأتي مسرعا لألتقي به في مكان بعيد عن شقتي!!.

وفي أقل من ساعة كان ذلك الصديق معي!!.. أخبرته بكل ما حدث.. وتوسلت إليه أن ينقذني وأنها ستكون المرة الأخيرة التي يراني فيها إذا ما تمكن من إخراجي من البلد!!.. و.. لحظات قليلة من التفكير قبل أن يقول:

-هناك رجل من جنسية عربية يشتهر بدقته في تزوير الجوازات.. سيستخرج لك جوازَ سفرٍ مزورا لتتمكن من مغادرة البلد.. طبعا لا بد أن تغير من مظهرك قليلا!!.. احلق شعرك على سبيل المثال.. أو ارتد نظارة..

سكت قليلا وكأنه يفكر بجدوى ما يقوله لي.. فاستطرد بعدها بحماس وقد راقت له الفكرة:

-نعم.. تغييرات بسيطة في مظهرك مع جواز سفر مزور تحمل فيه اسما مختلفا.. لا أعتقد بعدها أن أحدا سينتبه إليك.. ولو كشف رجال الشرطة أمرك فسيكون هذا بعد فترة طويلة تكون فيها قد ابتعدت تماما ولن يستطيعوا ملاحقتك.

نظرت إليه طويلا وأنا أفكر.. همممم.. إنها فكرة لا بأس بها على الإطلاق.. أنا أملك حاليا عشرة آلاف دينار.. وأستطيع أن أبدأ حياة جديدة خارج (الكويت).. ربما سأضطر للعمل لمدة سنة تقريبا كي أجمع المزيد من المال قبل أن أبدأ بـمشروع تجاري صغير يؤمن لي مستقبلا جيدا.. وافقت دون ترددا!!.. وقد أخبرني صديقي أن هذا المزوِّر سيطلب 300 دينار نظير خدماته.. إنه مبلغ رائع بكل المقاييس ولم أكن لأرفض.. لا بأس.. لا بأس على الإطلاق!!.

أخذت بعدها عنوان ذلك المزور الذي يطلق عليه لقب (أبو كسّاب).. ثم ذهبت إلى شقتي أولا لأجمع أغراضي.. وبالطبع لم أنس أن أحلق شعر رأسي كله بماكينة الحلاقة.. حتى بدوت كالممثل الشهير (كوجاك).. واشتريت بعدها نظارة تخفي بعض ملامحي.. إنني أبدو مختلفا نوعا ما.. فعلا.. حلاقة الشعر تغير الكثير من ملامح الإنسان.. حسنا.. هذا رائع.. ثم.. لا يوجد لدي الكثير لأحمله.. كل ما يهمني وضعته في حقيبة صغيرة.. لقد عرفت من صديقي أن ذلك المزور سيصنع

لي جواز سفر في ظرف ثلاث ساعات فقط.. وأنني سأسافر بحرا إلى (إيران) في الصباح الباكر!!.. ومن هناك سأتجه إلى (دبي).. أو إلى أي دولة خليجية أخرى حيث سأستقر فترة من الزمن قبل الهرب إلى مكان آخر لم أحدده بعد!!.. لن تكون هناك أي خطورة طالما أنني سأكون في (دبي) بجواز سفر يحمل اسما مختلفا.

خرجت من شقتي في الواحدة فجرا محاولا أن أبدو طبيعيا.. كان التوتر يأكلني من الداخل.. يجب أن أذهب إلى المدعو (أبو كسّاب) بأسرع وقت ممكن!!.. إنه يسهر عادة حتى ساعة متأخرة.. هذا ما عرفته من صديقي.. ولم أنس أن أتصفح جريدة الغد.. تلك الجريدة التي كانت قد طبعت بالفعل وتم عرضها للبيع في البقالات التي تسهر حتى الفجر!!.. تصفحت الجريدة بقلق لتتجمد الدماء في عروقي!!.. هناك خبر صغير عن طعن رجل ووفاته أثناء نقله إلى المستشفى.. يقول الخبر إن عددا كبيرا من الشهود قد شاهدوا الجاني -الذي هو أنا بالطبع -وأدلوا بأوصافه لرجال الشرطة وجار البحث عني!!!.. يا للهول.. (أبو كسّاب) أنقذني أرجوك.. (أبو كسّاب) أنقذني أرجوك.. رحت أردد تلك الجملة طوال الوقت كالمجنون وأنا متجه إلى شقة ذلك الرجل.. لم أعد أستطيع السيطرة على أعصابي.. كنت أرتجف بقوة وبشكل يوحي وكأنني مصاب بالحمى!!.. لم أستقل سيارة أجرة للوصول إلى شقة (أبو كسّاب).. كنت أخشى الجميع.. أخشى كل شيء!!.. فاضطررت أن أمشي أكثر من ساعتين كي أصل إلى شقته في منطقة (النقرة) حتى بلغ مني الإرهاق مبلغا!!!.

وصلت إلى شقة الرجل التي تقع في عمارة سكنية قديمة في الثالثة فجرا تقريبا!!.. و.. سمعت صوتا غريبا عند وصولي إلى باب شقته.. همهمة؟ !!.. لا أعلم!!.. ترددت كثيرا قبل أن أطرق الباب.. ولكن.. عندما تذكرت المصيبة التي أواجهها.. اتخذت قراري.. طرقت الباب بأصابع مرتجفة.

لحظات قبل أن يفتح الباب شاب في العشرين من العمر ويشير إلي بالدخول دون أن يسألني عن هويتي!!.. دخلت إلى الشقة مستغربا.. وإذا بأمر آخر في منتهى الغرابة!!!.. شابين آخرين.. وامرأة عجوز!!!.. جميعهم مستيقظين صامتين تماما ينظرون إلي بنظرات خاوية!!!.. قبل أن أتنحنح بحرج قائلا:

-أعتذر عن هذه الزيارة المتأخرة.. ولكن الأمر لا يحتمل التأخير.. هل.. هل أستطيع أن أقابل (أبو كسّاب) من فضلكم؟!!.

لحظات من الصمت قبل أن يرد أحد الشبان الثلاثة:

-هل أنت صديقه؟ ؟!..

أجبتهم بحرج:

-في الواقع.. لا.. لكنني أريده بأمر هام جدا.. خدمة لا تستطيع الانتظار حتى الغد.

نظرت إلي السيدة العجوز قبل أن تلقي بمفاجأة مدوية هي أقرب إلى قنبلة تفجرت في عقلي وقلبي وكل أنحاء جسدي!!.. عندما قالت بأسى:

-لقد تأخرت يا أستاذ.. (أبو كسّاب) أعطاك عمره!!.. لقد توفاه الله مساء أمس.. طعنه شاب في بطنه بمطواة في منطقة (السالمية)!!!!!!.. و..

لم أستمع إلى الباقي.. بل صعقت.. صعقت.. صعقت.. صعقت.. صعقت!!!.. لا أعرف كم يجب علي ترديد هذه الكلمة حتى أعبر عن مدى الصدمة التي شعرت بها!!!.. إن الرجل الذي طعنته

أمس هو (أبو كسّاب) نفسه!!!.. يا للهول!!!.. نظرة شاردة مجنونة في أرجاء الشقة قبل أن أجد صورته معلقة على الحائط.. إنه الرجل الذي قتلته بالفعل!!!.. لا أذكر كيف خرجت من الشقة.. لا أذكر أنني ودعتهم.. بل خرجت شاردا ضائعا أهيم في الشوارع والشعور بالضياع يسيطر علي ويقتلني قتلا.. لقد أصبحت عملية القبض علي مسألة وقت.. ومن بعيد رأيت مخفر شرطة (النقرة) فوقفت أنظر إليه مشدوها.. هل أسلم نفسي إلى رجال الشرطة؟؟!!!.. لا أعلم.. أشعر بالضياع!!.. لا يمكن أن يكون هناك حظ سيء أكثر من هذا.. أن تقتل رجلا ويتضح أنه هو تحديدا من ستحتاج إلى مساعدته فيما بعد!!.. هذا لا يصدق.. لا يصدق!!.

عدت إلى شقتي مهزوما منكسرا وفي أسوأ حالاتي المعنوية.. والخواطر تلتهمني التهاما.. ما زلت أفكر.. وأفكر.. إن كان يجب علي تسليم نفسي أم لا!!.. ما زلت عاجزا عن اتخاذ القرار.

عينان

تسعة وستون عاما.. تسعة وستون عاما من عمري عشتها وحيدة.. بلا أهل أو أصدقاء.. أصبحت يتيمة الأبوين في سن الخامسة بعد أن توفيا بحادث سيارة!!.. لتمر السنون وأصبح عجوزا لا أستطيع مغادرة كرسيي المتحرك بسبب الأمراض العديدة التي تفتك بي!!.. وليت الأمر يتعلق بالوحدة والأمراض فحسب.. فأنا ضريرة أيضا!!!.. لقد ولدت هكذا.. فلا أرى سوى الظلام.. بل إن رؤيتي للظلام ليست سوى تعبير مجازي!!.. فحتى الظلام أعجز عن رؤيته والشعور به.. فلكي تعرف الظلام.. يجب أن تعرف النور أولا!!.. هذه حياتي باختصار شديد!!.. باردة كئيبة جدا تسير على وتيرة واحدة.. وإنني واثقة أنه لولا العناية الصحية الفائقة التي أحصل عليها بسبب أموالي لمت منذ زمن طويل!!.

ربما الأمر الوحيد الحسن في حياتي ثرائي الفاحش.. فقد ورثت من والدي ثروة طائلة.. لكني لم أستمتع سوى بالقليل منها بسبب سجني الاختياري وانعزالي عن المجتمع.. كل هذه الأمور جعلت مني امرأة شرسة حادة المزاج ووجهي جامدا لا يبتسم أبدا!!.. بل لا أذكر أن أحدا قد رآني أبتسم من قبل.. ربما لأنني ناقمة على كل شيء!!.

أعيش في منزل ضخم ورثته من والدي ويعمل لدي العديد من الخدم.. بل إن لدي خادما من جنسية عربية جئت به خصيصا كي يقرأ لي!!.. تخيلوا هذا!!!.. فأنا لا أستطيع القراءة بالطبع ولا أجيد حتى طريقة (برايل) (Braille) التي يجيدها العميان للقراءة!!.. لم أجد أبدا الرغبة في تعلم أي شيء!!.. بل ولم تكن لدي أي هوايات.. سوى واحدة فقط!!.. وهي الاستمتاع بالفنون.. وهذا لا يعني كل الفنون بالطبع.. الموسيقى والنحت فحسب.. فالموسيقى أستطيع الاستماع إليها!!.. والتماثيل أستطيع أن أتحسسها لأعرف ماهيتها!!.. كانت هذه متعتي الوحيدة في الحياة!!.. فلا أعرف التلفزيون أو السينما أو اللوحات الفنية رغم أنني ورثت من والدي العشرات من أغلى اللوحات الفنية التي أحتفظ بها في قبو المنزل!!.. طوال حياتي أتحرق شوقا لرؤية تلك اللوحات!!.. لرؤية شكل العالم.. لرؤية شروق الشمس أو غروبها.

أصدقاء؟ ؟!.. لم أعرف أي صديق في حياتي كما أخبرتكم في البداية.. فحتى الخدم الذين يعملون لدي يكرهونني.. إنني واثقة من هذا.. ولولا الرواتب المغرية التي أدفعها لهم لتركوني منذ سنوات بسبب معاملتي السيئة لهم وضيق صدري..

أما وراء قناع الصرامة والشدة والوقاحة الذي كنت أرتديه طوال الوقت.. كان هناك قناع بشري آخر!!.. القناع الحقيقي الذي يحمل علامات القهر والحنق والكراهية للقدر والمجتمع ولكل شيء!!..

إذا ما الجدوى من هذه القصة؟؟!!.. الواقع أن أمورا كثيرة تغيرت.. وبسرعة رهيبة!!.. ففي أثناء زيارة طبيبي الخاص الدكتور (عارف) للاطمئنان على البقية الباقية من صحتي!!.. أخبرني عن صديق شخصي له.. طبيب عيون من (روسيا) على أعتاب النجاح في إيجاد علاج لحالتي!!.. طبيب يستطيع أن يزرع أعصابا لعيني بدلا من الأعصاب الضامرة.. وهو ما يعجز الطب حتى الآن عن صنعه ([2])!!.

كان الخبر الذي حمله لي الدكتور (عارف) أجمل خبر سمعته في حياتي!!.. فقد خفق قلبي المنهك

بشدة.. وشعرت لأول مرة بالأمل!!.. و.. سألت الدكتور (عارف) بحدة ولهفة:

-وأين نجد هذا الطبيب الآن؟!

قال لي بحذر:

-إنه في بلده.. (روسيا) بالطبع..

قلت له بحسم:

-أريده هنا.. في (الكويت)!!..

نظر إلي غير مصدق.. لم أرَ ملامحه بالطبع ولكن شعرت بأن ملامحه تحمل علامات الذهول.. خاصة عندما رد بصوت يحمل كل الانفعالات قائلا:

-هل؟!.. هل أنتِ جادة فيما تطلبين يا سيدتي؟ ؟!..

رددت بعصبية شديدة:

-وهل تظنني أمزح؟ ؟!..

تنهد بقوة وهو يقول:

-سأتحدث إليه غدا وأعدك بالجواب في أسرع وقت..

بالطبع لم أنتظر اتصاله بي.. فقد اتصلت أنا به في الصباح الباكر والانفعال يكاد أن يوقف قلبي المنهك.. ليزف إلي أغلى بشرى.. فقد وافق الطبيب الروسي على إجراء العملية!!.. رغم أنه قد رفض في البداية.. فأبحاثه ما زالت في طور التجربة.. إذ نجحت مع حيوانات التجارب فحسب.. ولم تتبين نتيجتها على البشر حتى الآن!!.. لذا فإن العملية غير قانونية وغير مضمونة النتائج كما تعلمون!!.. لكنه وافق بعد أن عرف أنني أعرض عليه أي مبلغ يريده.. وأن العملية ستتم في (الكويت) بسرية تامة!!.. وقد طلب مني ما يقارب ربع مليون دينار نظير العملية!!.. وهو مبلغ تافه بالنسبة لي سأدفعه عن طيب خاطر!!.

كانت هناك مشكلة أخرى تتعلق بتوفير غرفة العمليات.. ولكن الدكتور (عارف) ساعدني في إيجاد حل لهذه المشكلة بعد أن دفعت له مائة ألف دينار هو الآخر.. فقد اتفق مع زميل له في مستشفى (مبارك) على توفير غرفة العمليات لي.. حيث ستستغرق العملية قرابة الثلاث ساعات.. على أن يتم تهريبي بعدها سرا إلى منزلي حتى لا يكشف أحد الأمر!!.

كل شيء كان يتم بتخطيط سليم ودقيق.. المشكلة الوحيدة كانت تكمن في حالة فشل العملية!!!.. ففي حالة الفشل.. لن أتمكن من إجراء العملية ثانية.. لأن جسدي الواهن قد لا يحتمل عملية كتلك مرة أخرى!!.. لذا فإن الطبيب الروسي لن يخاطر بتكرار العملية في حال فشلها خوفا على حياتي حتى لو دفعت له الملايين.. نعم.. لا يوجد شيء مضمون.. ولكن -وفي نفس الوقت-لا يوجد لدي ما أخسره.

وصل الطبيب الروسي إلى (الكويت) أخيرا بعد أسبوعين من التجهيزات والتعقيدات الروتينية.. ولحسن الحظ سارت الأمور بكل سلاسة.. حتى جاءت الليلة الموعودة.. ليلة العملية!!!.. فها أنا أرقد على السرير في غرفة العمليات.. و.. لحظات قليلة قبل أن أغيب عن الكون بسبب البنج.. فقدت وعيي فترة بدت لي وكأنها ثوان.. ولكن الدكتور (عارف) -وهو المترجم والوسيط بيني وبين

الطبيب الروسي-قال لي بعد استيقاظي متنهدا:

-لقد تم إجراء العملية يا سيدتي.. لن نعرف نتيجتها إلا بعد ساعات قليلة من الآن.. وهناك أمر آخر نسيت أن أخبرك به.. فقد توصل الطبيب الروسي إلى طريقة لتقوية الأعصاب.. فعندما تفتحين عينيك – في حالة نجاح العملية بإذن الله – لن تشعري بقوة الضوء.. بل سترين الموجودات دون أي صعوبة..

كنت أشعر بألم هائل في رأسي بسبب العملية.. لكني كنت أصغي باهتمام لكلام الدكتور (عارف).. ثم سألته بصعوبة:

-م.. م.. ماذا تعني؟؟

قال لي بهدوء وكأنه يلقي محاضرة:

-عندما يصحو الإنسان المبصر من النوم.. يشعر عادة ببعض الضيق إذا كانت الإضاءة الموجهة إلى عينيه قوية.. وذلك بسبب الساعات الطويلة التي يغمض فيها عينيه أثناء النوم.. وأنت يا سيدتي لم تفتحي عينيك طوال حياتك!!.. لذا فمن المفترض أن تعيشي أياما طويلة لا تستطيعين فيها تحمل قوة الضوء وستحتاجين إلى صبر وفترة زمنية طويلة قبل أن تري الموجودات بصورة سليمة.. ولكن.. وبفضل زميلي الطبيب الروسي.. لن يحدث لك أي شيء من الذي ذكرته لك.. فقد قام زميلي بتقوية أعصاب عينيك بفضل عقار قام بابتكاره بنفسه.

تنهدت بارتياح شديد وأنا أسمع هذا الكلام.. ترى هل سأبصر أخيرا؟؟!!!.. بعد تسعة وستين عاما من الظلام.. هل سأبصر أخيرا؟؟!!!.. ظل السؤال يتردد في ذهني طوال الوقت.. وظللت في حالة ترقب تكاد أن توقف قلبي.. حتى بعد أن أخرجوني سرا من غرفة العمليات وحتى بعد وصولنا إلى منزلي.. مهلا!!.. تذكرت أمرا هاما:

- دكتور (عارف).. أرجوك أن تخرج من البيت الآن وأن تصطحب معك الطبيب الروسي إلى الفندق..

قال لي بدهشة:

-ولكن يا سيدتي..

قاطعته بسرعة وأنا أقول:

-أريد أن أكون وحيدة.. أريد أن أزيل الضماد عن عيني بنفسي.. أريد أن أكون وحيدة في الساعات الأولى من البصر.. لقد أمرت الخدم بجلب جميع مقتنياتي وتحفي ولوحاتي الفنية إلى غرفة النوم حتى أتمكن من رؤيتها بعيني.. ثم أمرتهم أن يغادروا ويتركوني وحيدة.. لا أريد أحدا معي في المنزل هذه الليلة!!..

سكت قليلا قبل أن أقول بشوق:

- يااااه.. سأرى الشمس غدا.. سأرى شروق الشمس لأول مرة في حياتي.. أسمع دائما أن منظر شروق الشمس خلابا لا يصدق!!.. أريد.. أريد أن أشاهد التلفزيون أيضا.. أريد أن أشاهد فيلم (تيتانيك) الذي طالما حلمت بمشاهدته!!.. الاستماع إلى حوار الفيلم لم يشبع رغبتي أبدا.. سأشعر أخيرا بطعم الرومانسية وأنا أشاهد الفيلم حتى وإن كان ذلك في سني المتأخرة!!.. لقد وضعت مخططا جديدا لحياتي إذا نجحت العملية.. جولة في أفخم (ليموزين) في كل أنحاء

(الكويت).. آه.. ليت قلبي يحتمل السفر وركوب الطائرة.. لكن لا يهم.. سأفعل أفضل ما يمكن فعله هنا في (الكويت).. و..

قاطعني الطبيب الروسي وهو يتحدث بالإنجليزية مع الدكتور (عارف) الذي قال بدوره بترقب وتوتر شديدين:

-زميلي يقول إن بوسعك الآن فتح الضمادة المحاطة بعينيك!!..

ساد صمت مهيب في صالة المنزل.. قبل أن أطلب مجددا من الدكتور (عارف) أن يرحل مع زميله وأن يعودا إلي مساء الغد.. وعبثا حاول البقاء معي لمتابعة حالتي لكنني رفضت تماما.. بل ونهرتهما بحدة!!.. قبل أن يستسلم الاثنان ويخرجا من البيت!!.. أسمع صوت خطواتهما تبتعد.. ثم.. الصمت الرهيب الذي ساد المكان!!.. وأخيرا.. حانت لحظة الحسم!!.. وضعت يدي على الضمادة بتوتر.. وبدأت بنزعها بيد مرتجفة!!.. وبقلب ضعيف منهك يكاد أن يتوقف من شدة الانفعال.. قمت بفتح الضمادة شيئا فشيئا وببطء شديد بسبب الخوف والقلق والترقب.. قبل أن أشعر بالنور يتسلل إلى عيني.. نور قوي يؤلم عيني قليلا!!.. رغم ما فعله الطبيب الروسي لتقوية أعصاب عيني.. إلا أن عينيّ ما زالتا تشعران بالألم قليلا بسبب قوة الضوء!!.. نظرت إلى السقف لا شعوريا لأرى مصدر النور!!.. و.. شيئا فشيئا.. تمكنت من الرؤية!!!.. ما هذا الشيء الرائع في السقف؟؟!!!.. آه لا شك أنها!!.. لا شك أنها الثريّا.. كم هي جميلة.. كم هي رائعة!!.

رحت أجوب الغرفة بنظري غير مصدقة أنني أبصر أخيرا بعد سنوات من الظلام.. أشياء كثيرة لا أعرف ما هي.. لا بد أن ألمسها لأعرف ماهيتها!!.. و.. ما هذا الشيء المخيف؟!.. إنه.. إنه أنا!!.. نهضت مترنحة من على الكرسي المتحرك بسبب ضعف ساقي وبسبب تأثير العملية وكبر السن والانفعال وبسبب كل شيء آخر.. ثم اتجهت بصعوبة ناحية المرآة الضخمة التي أرى انعكاسي فيها.. نعم.. هذا أنا.. أخيرا رأيت وجهي.. لا أعرف مقاييس الجمال لكن لا أعتقد أن أحدا سيصف امرأة في مثل سني بالجمال.. مهلا.. تلك الأشياء الغريبة!!.. ما هي بالضبط؟!.. أعتقد أنها اللوحات الفنية.. يا للروعة.. لأول مرة في حياتي اغرورقت عيناي بالدموع.. يا لها من روعة.. لحظات قليلة وقفت فيها أتأمل كل ما في الغرفة.. قبل أن يخفت بصري فجأة وأصاب بالعمى مرة أخرى!!!!!.. نعم لقد أصبت بالعمى مرة أخرى دون سابق إنذار!!!.. لا.. لا يمكن أن يحدث هذا.. لا يمكن بعد كل هذا الجهد.. بعد كل هذه الأموال.. لا يمكن.. أين هذا الطبيب الوغد.. أين هو؟؟!.. لااااااااااااااااااااااااا.. صرخت.. صرخت بقوة.. انتابتني حالة من الهستيريا.. ووقعت على الأرض من فرط الانفعال!!.. شعرت لوهلة بأن قلبي سيتوقف!!.. بل سيتوقف فعليا.. أشعر ب.. ب.. أشعر أنني سأموت!!.. آلام مبرحة لا توصف في قلبي.. سأصاب بسكتة قلبية!!.. إن قلبي أضعف من أن يحتمل صدمة كهذه.. اللعنة.. أنقذوووني.. رحت أصرخ وأصرخ.. وأصرخ.. و.. إنني أحتضر.. أحت.....

سمع الدكتور (عارف) فيما بعد بوفاة تلك السيدة الثرية.. وشعر بحزن شديد من أجلها رغم أنها كانت امرأة صارمة قاسية غليظة باردة.. لقد عرف أنها توفيت بسبب سكتة قلبية مفاجئة كما ذكر الطبيب الشرعي!!.. ولم يعرف الدكتور (عارف) أو الطبيب الروسي إن كانت العملية قد نجحت أم لا.. ولكن.. ما لم تعرفه تلك السيدة.. وما لم يعرفه أيضا الدكتور (عارف) أو الطبيب الروسي أن العملية قد نجحت بالفعل!!!!.. بل ونجحت نجاحا باهرا!!!!!.. ولكن انقطاع التيار الكهربائي عن المنطقة التي تعيش فيها تلك السيدة جعلها تظن أنها فقدت البصر مرة أخرى!!.. لقد كانت صدفة أقوى من أن تحدث.. لكنها حدثت!!!!.. انقطع التيار الكهربائي عن المنطقة

بالكامل دون سابق إنذار -وهو ما يحدث في (الكويت) بكثرة مؤخرا مع الأسف- فظنت السيدة العجوز أنها فقدت بصرها مرة أخرى!!!!!.. وأن العملية قد فشلت.

ساعات.. من الغموض

كنت أقود سيارتي وسط الأمطار الغزيرة في ذلك الطريق الطويل المظلم متجهة إلى مقر عملي في إحدى شركات النفط.. بالطبع لم أكن لأقبل بهذه الوظيفة المهلكة التي تأخذني تماما من حياتي الاجتماعية لولا الراتب المغري الذي يسيل له اللعاب.. كانت الساعة تقترب من الخامسة فجرا وسيارتي تسير وحيدة في الطريق في هذا الوقت المبكر!!.. لا تزال الدنيا مظلمة.. والشمس لم تشرق بعد!!.. أعلم أنه طريق طويل ومخيف بالنسبة لفتاة مثلي.. لكنه الراتب كما تعلمون!!..

كنت أستمع إلى موسيقى هادئة تناسب تلك الأجواء قبل أن يلفت انتباهي شيء مريب.. مريب بحق!!.. فعلى جانب الطريق رأيت رجلا يرتدي ثيابا بالية مبتلة تماما ويشير بيده طالبا مني التوقف!!.. ستقولون إنني حمقاء؟ !!.. ستقولون إنني غبية؟ !!.. ربما!!.. لأنني توقفت بالفعل!!.. أحيانا يتصرف الإنسان بطريقة غريبة تثير استغرابه هو قبل أي أحد!!.. توقفت لهذا البائس وفتحت له نافذة سيارتي.. و:

-سيدتي.. أرجوك أن تقليني إلى أقرب محطة للوقود!!..

كان رجلا في أواخر الثلاثين من العمر.. يرتجف بقوة وثيابه مبتلة على الآخر بسبب الأمطار.. بل كان يتحدث وهو يلهث من شدة البرد حتى أشفقت عليه كثيرا.. أعلم أنكم ستقولون إن كل المجرمين يبدون كذلك!!.. لكني شعرت بأن الرجل صادق بالفعل وأنه بحاجة إلى مساعدة!!.. لحظات قليلة قبل أن أحسم أمري وأسمح له بالركوب في سيارتي!!.. نظرت إلى وجهه بتمعن قبل أن أنتبه إلى حقيقة غريبة جدا!!.. وجه هذا الرجل!!.. وجهه ليس غريبا على الإطلاق.. أشعر أنني قابلته من قبل!!!.. وقبل أن أتفوه بحرف.. وجه لي الرجل صدمة هائلة عندما قال هو الآخر:

-لا أريد أن أخيفك يا سيدتي.. ولكن.. وجهك.. يبدو مألوفا إلى حد كبير!!!.. أشعر.. أشعر بأنني رأيتك من قبل!!!!..

شهقت بقوة من هول المفاجأة!!.. وأخبرته بأن هذا بالضبط ما فكرت به عندما أمعنت النظر في وجهه.. ولم يفتني أبدا أن ألحظ المفاجأة على وجهه هو الآخر!!.. إنها ظاهرة (ديجافو) الشهيرة.. ولكن.. كيف نشعر بها نحن الاثنين بنفس الوقت؟؟!!.. هذا مستحيل!!!.. لا يمكن أن تصل الصدفة إلى هذا الحد!!.. تبادلنا بعض أطراف الحديث قبل أن أنتبه إلى حقيقة أخرى!!.. فهذا الرجل يعرف تقريبا كل ما أريد أن أتفوه به وأقوله!!.. سألته بقلق شديد:

-كيف؟!.. كيف تعرف كل ما أريد قوله؟!.. كلما أردت أن أتحدث بشيء أجدك تقوله قبلي.. كلما أردت أن أسألك.. أجدك تجيبني على السؤال قبل أن أسألك؟؟!!.. هل.. هل تقرأ أفكاري مثلا؟؟!!.. م.. مهلا.. يا إلهي..

سكت قليلا بعد أن فطنت إلى حقيقة أخرى مروعة.. فقلت للرجل مذهولة:

-لقد.. لقد فعلت أنا الشيء نفسه!!!.. كلما أردت أن تحدثني أجد نفسي أعرف ما ستقوله وأجيب عليك قبل أن تسأل!!!!..

رد قائلا بانزعاج حقيقي:

-نعم.. إنني.. إنني.. لم أنتبه لهذا إلا الآن؟ !!.. ما الذي يحدث هنا؟!.

شعرت برعب وذهول سيطر على كل ذرة من جسدي عندما تذكرت شيئا آخر.. فكل ما أعرفه عن نفسي أن اسمي: (رهام)!!.. وأنني مهندسة ناجحة في إحدى شركات النفط.. مع معلومات قليلة أخرى!!!

هذا كل ما أعرفه عن نفسي!!!.. أحاول أن أتذكر شيئا عن طفولتي.. شيئا عن أي شيء يخص عائلتي مثلا!!.. لكني أعجز عن ذلك!!.. هل أنا أحلم؟ !!.. قطعا لا.. هل أنا مصابة بفقدان الذاكرة؟!.. ربما!!.. ولكن.. إذا كنت مصابة بفقدان الذاكرة فلماذا لم أذهب إلى المستشفى؟؟!!.. لماذا لم أذهب إلى أي طبيب نفسي؟!.. لقد كنت ذاهبة إلى عملي دون أدنى شعور بأي مشكلة!!!..

قطع حبل أفكاري ذلك الرجل الذي قال بقلق شديد:

- أعرف ما فكرت به!!.. أنا أيضا انتبهت إلى هذا الأمر للتو!!.. فكل ما أعرفه هو أن اسمي (سعود)!!.. لا أعرف أي شيء آخر عن نفسي!!..

كدت أن أوقف سيارتي أو أعود أدراجي متجهة إلى أي مخفر للشرطة.. لماذا الشرطة؟!.. لا أعرف.. إنني أشعر بالخوف.. أشعر بالضياع!!!.. لكني -رغم ذلك- لم أغير من وجهتي!!.. رغبة قوية كانت تجرني إلى القيادة ومساعدة (سعود).. إلى أن وصلنا أخيرا إلى محطة الوقود.. و..

-أعرف.. أنت تعتقدين أن محطة الوقود ستكون مغلقة الآن في هذا الوقت المبكر.. إنك تشعرين بهذا.. أليس كذلك؟ ؟!..

سألني (سعود) باستغراب.. فأومأت برأسي إيجابا قبل أن يخبرني أنه هو الآخر لديه إحساسا قويا بأن محطة الوقود مغلقة في هذا الوقت!!..

ولكن!!.. عندما وصلنا.. كانت محطة الوقود مفتوحة!!.. كيف أخطأنا بتوقعاتنا هذه المرة!!.. أو الأجدر أن نقول: لماذا تنبأنا نحن الاثنان أن محطة الوقود ستكون مغلقة أصلا؟؟!!.. لا.. لم يكن مجرد تنبؤ!!!.. بل شعور قوي جدا سيطر علينا معا وجعلنا نظن أن المحطة مغلقة!!.. ما هذه الألغاز التي نعيشها؟!!!.. إن الأمر يفوق الوصف.. أنا واثقة من أنني لا أحلم.. لا يمكن أن يكون كل هذا مجرد حلم!!.

طرحت تلك التساؤلات خلفي للحظة حتى أذهب لشراء زجاجة ماء من إحدى ماكينات البيع الآلية الموجودة في محطة الوقود.. فتحت حقيبتي لأخرج بعض العملات المعدنية!!.. قبل أن أصطدم بوجود مسدس في حقيبتي!!!.. لم تكن المفاجأة بوجود المسدس الذي لا أعرف من أين جاء أصلا!!.. بل لأنني أقسم أن المسدس قد اختفى في تلك الأثناء!!.. اختفى بسرعة مذهلة بعد أن فتحت حقيبتي بلحظات!!.. هل فقدت عقلي؟!.. لا أعرف.. ليتني أعرف!!!.. الجنون هو التفسير الوحيد لما يحدث هنا!!.. أكاد أن أقسم بأنني رأيت مسدسا في حقيبتي للحظة!!.. ثم اختفى!!!.

لحظات قليلة جدا وسط كل هذا الغموض.. قبل أن تتوقف دورية شرطة.. ويخرج منها شرطيان يتجهان نحونا.. قال لي أحدهما وعلى وجهه علامات الخطورة:

-حسنا يا (رهام).. أنت و(سعود) ستذهبان معنا.. نحن نعرف أنكما شريكان في الجريمة!!..

قبل أن أرد.. وقبل أن أتخذ أي رد فعل.. قال لهما (سعود) بحدة:

- هل تعرفان من أنتما في واقع الأمر؟ ؟!.. هل تعرفان شيئا عن طفولتكما؟؟.. أو عن أيام دراستكما في كلية الشرطة؟؟.. هل تعرفان كيف وصلتما إلى محطة الوقود هذه؟!.. من أي مخفر أنتما؟؟.. هل تعرفان؟ ؟!.. أتحداكما أن تجيبا على تساؤلاتي!!.

حقا!!.. كنت سأوجه لهما نفس الأسئلة!!.. ولم أفاجأ أبدا عندما رأيت علامات الحيرة الشديدة على وجه الشرطيين!!.. توقفنا جميعا ونحن ننظر إلى بعضنا بعضا.. والأمطار الغزيرة جعلت ملابسنا خرقا صالحة لمسح البلاط!!.. جميعنا عاجزون عن تذكر أي شيء!!.. جميعنا نعيش غموضا ما بعده غموض.. لماذا أشعر بأنني أعرف (سعود) جيدا؟؟!!.. لماذا شعرت بأنني رأيت هذين الشرطيين من قبل؟؟!!.. لماذا كل هذه الألغاز؟ ؟!.. ليتني أعرف.. ليتني أعرف!!.

-اللعنة..

قالها (عبد العزيز) بحدة وهو يقوم بتمزيق الورقة التي كتب عليها قصته.. فقالت والدته بحنان:

-لا تغضب يا ولدي.. ستكتب قصتك تلك إذا ما فكرت بأحداثها مرة أخرى وحاولت إيجاد حلولا لثغراتها..

قال (عبد العزيز) ذو الخامسة عشرة عاما:

-إنني أحاول يا أمي.. لقد كتبت تلك القصة 14 مرة تقريبا.. وفي كل مرة أحاول أن أغير حدثا فيها.. ولكن دون جدوى.. حاولت في المرة الأخيرة أن أجعل محطة الوقود مفتوحة على أن أزرع فيها أحداثا جديدة.. لكنني لم أجد ما أضيفه.. حاولت أن ألغي وجود المسدس من حقيبة (رهام) بطلة قصتي وأن أختلق أحداثا جديدة لكني أشعر أن القصة غير مترابطة.. وتحتاج إلى تعديلات وإضافات كثيرة!!.

قالت الأم مشجعة:

-لا عليك يا ولدي.. جميع الكتّاب وجدوا الأمر صعبا عندما كتبوا أولى قصصهم.. إنها البداية.. البداية فحسب.. صدقني.. شيئا فشيئا ستكتسب الخبرة الكافية لتقوم بتأليف أجمل القصص دون أي مشاكل.

نظر (عبد العزيز) إلى والدته.. وشعر ببعض الحماس بسبب تشجيعها.. قبل أن يأتي بورقة جديدة.. ويبدأ بكتابة القصة مرة أخرى.. و..

((كنت أقود سيارتي وسط الأمطار الغزيرة في ذلك الطريق الطويل المظلم متجهة إلى مقر عملي في إحدى شركات النفط.. بالطبع لم أكن لأقبل بهذه الوظيفة المهلكة التي تأخذني تماما من حياتي الاجتماعية لولا الراتب المغري الذي يسيل له اللعاب)).

عندما.. احترق العالم

عشرات الأفلام التي تحدثت عن نهاية العالم بسبب حرب نووية.. عشرات القصص التي ناقشت تلك القضية.. وكأن الجميع قد تنبأ بما سيحدث بالفعل!!.. ففجأة وبلا سابق إنذار.. أصبح العالم على صفيح ساخن.. أزمة سياسية بين الدول العظمى تنذر بكارثة!!.. حتى بتنا نجهل من سيحارب من ومن سينتصر على من!!.. القوى السياسية تهدد باستخدام.. القوة طبعا!!.. والصواريخ النووية موجهة إلى كل مكان.. حتى لتظن أن هناك صاروخا نوويا مخصصا لكل بيت!!.. كنت أعلم أن الحرب ستندلع لا محالة.. كنت واثقا من هذا!!.. فقضيت أسابيع طويلة أبني فيها سردابا واقيا للإشعاع في منزلي.. سردابا يحوي كل ما قد يحتاجه إنسان سيقضي شهورا طويلة تحت الأرض بعيدا عن التلوث الإشعاعي الناتج عن تلك الحرب والذي سيقضي على كل شيء!!.. على أمل أن تزول تلك الإشعاعات بعد شهور وتسنح لي الفرصة لبدء حياة جديدة مع الناجين إن وجدوا!!.

كنت أعمل دون توقف.. فقمت بتجهيز السرداب بكل ما قد يخطر على بال وبزمن قياسي!!.. مؤن ومواد غذائية معلبة وأجهزة خاصة لصنع الأكسجين.. نباتات وخضراوات.. حقيقة كان السرداب وكأنه نسخة متواضعة ومصغرة من سفينة نبي الله (نوح) عليه السلام!!.. ولم أنسَ أهم ما سأحتاجه في هذا السرداب.. جهاز خاص لرصد الإشعاع في الخارج حتى أعرف الوقت المناسب للخروج.. ظللت أسابيع طويلة أحاول أن أزود السرداب بكل ما قد أحتاجه أثناء اختبائي وانعزالي التام عن العالم.. ثم.. جاء أهم ما في الأمر!!.. أن أتزوج حبيبتي (سهام) وأقنعها أن تعيش معي في السرداب بعيدا عن الدمار الذي سيحل بالعالم!!.. ولم يكن الأمر بالصعوبة التي تصورتها.. فالعالم بأكمله يترقب بقلق وتوتر.. وخوف!!.. والجميع يبحثون عن أي وسيلة للنجاة.. وبالفعل!!.. تم الزواج سريعا في المحكمة!!.. فنحن الاثنان مقطوعان من شجرة.. ولا يوجد من يسأل عنا.. لذا ف. (سهام) الإنسانة الوحيدة التي يهمني أمرها في هذا العالم.. وأنا أمثل لها كل شيء في حياتها!!..

تزوجنا وعشنا معا في منزلي فترة لا تتجاوز شهرا واحدا.. حتى ازدادت وسائل الإعلام اشتعالا.. وتحدث البعض فجأة دون سابق إنذار عن إطلاق دولة معادية صاروخا نوويا بالفعل ناحية بلدي!!.. وبالطبع.. لم يعد هناك ما يقال.. هذه بداية الحرب لا محالة!!.. حمدا لله أنني استعددت جيدا لهذا اليوم!!.. هرعنا مسرعين إلى السرداب.. وأقفلنا بابه بإحكام!!.

ظللنا هناك ساعات قليلة قبل أن نسمع دويا هائلا ارتج معه المكان للحظة!!.. ثم عم السكون ولا شيء بعد ذلك!!!.. احتضنت زوجتي الحبيبة (سهام) بقوة.. ونحن نرتجف معا بانتظار المصير المخيف الذي ينتظرنا وينتظر العالم!!.. ساعات طويلة مضت لأقوم بعدها بتشغيل جهاز الراديو.. و.. لا شيء بالطبع!!.. لا صوت إلا التشويش الاستاتيكي الكئيب!!.. ظللنا هكذا أياما طويلة مكتئبين تماما نعيش في صمت وخوف وترقب.. قبل أن نعتاد شيئا فشيئا على الحياة في السرداب بعد ثلاث شهور من العزلة التامة عن العالم الخارجي!!.

كنا نشعر أن الأمور تسير على ما يرام سوى أمرا واحدا كان يسبب لنا بعض القلق.. التلوث الإشعاعي في الخارج.. إنه لم يتناقص على الإطلاق وكأن الحرب قد انتهت للتو!!!.. لقد كنت واثقا أن نسبة التلوث الإشعاعي في الجو ستنخفض شيئا فشيئا مع مرور الأيام.. لكن هذا لم

يحدث إطلاقا!!!.. الأيام تمضي والشهور تتعاقب حتى مضى على وجودنا في السرداب قرابة العام!!!.. ما زلنا نملك ما يكفينا من المؤن لعامين آخرين.. ولكن.. أن يمر عام على اندلاع الحرب دون أن يقل معدل التلوث الإشعاعي في الجو لهو أمر مخيف.. مخيف بحق!!.. كان القلق ينهش قلوبنا مع تساؤلات لا حصر لها.. ما حال العالم في الخارج؟؟!!.. هل هناك أي ناجين؟؟!!.. هل سنكون أنا و(سهام) من نحمل على عاتقنا مسؤولية إنقاذ الجنس البشري من الانقراض؟ !!.. نعم.. فلا شك أن الحرب قد اندلعت ولا أظن أن أحدا سينجو.. لا أعتقد أن أحدا قد أعد العدة ليعيش منعزلا طوال تلك الفترة بالطريقة التي أعيشها مع حبيبتي (سهام) في هذا السرداب!!.. ترى.. هل سنصبح أنا وهي النسخة الجديدة من آدم وحواء؟ !!.. لا أعلم.. حقا لا أعلم!!.

ظللنا هكذا في قلق مستمر لا نعرف شيئا عما يحدث خارج السرداب!!.. صبرنا ينفد!!.. المؤن تنقص!!.. كل شيء ينقص سوى التلوث الإشعاعي في الخارج.. إنه لا يتناقص أبدا!!!.. لست عالما.. بل أنا مهندس إلكترونيات.. فلا أعرف شيئا عن طبيعة الإشعاعات النووية.. ولكن العقل والمنطق والعلم يقولان إن الإشعاعات لا بد أن تتناقص مع مرور الوقت!!.

لقد كنت طوال الأيام السابقة أتخيل شكل العالم.. مبان مهجورة مدمرة.. هدوء مخيف يخيم على كل شيء.. آثار الدمار تمتد على مد البصر.. هذا ما كنت أتخيله.. والآن لم أعد قادرا على التخيل.. فقد نسيت شكل العالم الخارجي وحفظت بالمقابل كل ركن في هذا السرداب.. خاصة بعد أن مر عامان على وجودنا فيه دون أن يقل معدل التلوث الإشعاعي في الخارج إطلاقا!!.. إلى أن جاء ذلك اليوم الذي اقترحت فيه (سهام) أن نخرج أخيرا!!.. فلم تعد تحتمل البقاء في هذا المكان.. والواقع أنني كنت أشعر بذات الشعور!!.. أعلم أن المنطق يحتم علينا البقاء ولكن كل شيء آخر يدفعنا إلى الخروج حتى وإن كلفنا هذا حياتنا!!.. لكني أقنعتها وأقنعت نفسي بالصبر.. وصبرنا بالفعل.. إلى أن اقتربنا من نهاية العام الثالث دون أن يتناقص التلوث الإشعاعي في الخارج ولو بنسبة بسيطة!!.. فما زال الجهاز يشير إلى وجود هذا التلوث بشكل شامل في العالم الخارجي لم ينقص إطلاقا منذ نشوب الحرب!!.. ولا يمكن أن يخطئ هذا الجهاز الدقيق في رصد التلوث الإشعاعي!!.. هذا غير وارد على الإطلاق.. لقد دفعت مبلغا فادحا من أجل هذا الجهاز ولا يمكن أن يخطئ.. ولو أصابه أي عطل.. لأعطى إشارة إلى ذلك.. نعم.. طالما أن عداد الجهاز يشير إلى وجود تلوث إشعاعي شديد.. فالتلوث موجود بالفعل!!.. و.. لم يعد هذا يهمني كثيرا.. فإن لم نمت موتا سريعا من التلوث.. سنموت موتا بطيئا من الجوع في هذا السرداب!!.. موتا ربما أشد قسوة.. خاصة أن ما تبقى من المؤن لم يعد يكفي إلا لأيام قليلة جدا مع صيام شديد!!.

عندها فقط قررنا أن نكسر حاجز الخوف ونخرج لمواجهة العالم الخارجي!!!.. سأموت مع (سهام) أو أعيش معها.. هذا عزائي وعزاؤها الوحيد!!.. وعلى الأرجح سنموت معا!!.

وهكذا اتخذنا قرارا مصيريا بالخروج!!.. واتخذنا كافة الاستعدادات لذلك!!.. أي استعدادات؟؟؟!.. لا نعلم.. إننا نخرج لنواجه الموت.. فهل هناك استعدادات لمواجهة الموت؟!.. ربما الدعاء فحسب أن يرأف الله بحالنا.. الطريف أنني كنت ممسكا بمسدس أثناء استعدادنا للخروج!!.. لا أعرف لماذا!!.. ربما هي الغريزة البشرية التي تقاتل من أجل الحياة لآخر رمق.. رغم أنني أجهل كيف سيحمينا المسدس من خطر التلوث!!.. و.... أدرت المقبض ونحن نحمي وجهينا ببعض الأقمشة.. عالمان أن هذا لن يحمينا من خطر التلوث الإشعاعي!!.. (سهام) متعلقة بذراعي وهي تنتفض بقوة.. قبل أن أفتح الباب أخيرا!!!.

لأول مرة منذ ثلاثة أعوام أرى شكل العالم في الخارج!!!.. كما توقعنا تماما.. الدمار يعم كل

شيء!!.. العالم مظلم كئيب!!.. لا أرى أي أثر لأشعة الشمس.. يبدو أن الغبار النووي قد شكل غيمة ضخمة تحجب الشمس عن الأرض!!.. الجو قاتم مخيف ولا أثر لأي حياة من أي نوع!!.. ثم.. بدأنا شيئا فشيئا نتنفس بصعوبة.. وبدأنا نسعل بقوة.. يبدو أننا آخر الناجين.. وآخر الهالكين أيضا!!!.. مفارقة طريفة فعلا!!.. لقد انهارت حضارة كوكبنا.. وداعا يا (سهام).. وداعا يا حبيبتي!!.. ظللت ممسكا بيدها.. فسقطنا معا.. ورحنا ننزف من أنفينا ومن أفواهنا بسبب تأثير التلوث الإشعاعي.. إننا نلفظ أنفاسنا الأخيرة.. إننا نموت.. نمووووووت.

وفي هذه الأثناء.. في هذه الأثناء تحديدا.. كان أحد زعماء الدول يلقي خطابا عالميا في مبنى الأمم المتحدة ويقول بصوت حماسي:

-إلى كل إنسان على وجه الأرض.. هذه الذكرى الثالثة على ضرب تلك المدينة الصغيرة في بلادي بصاروخ نووي.. هذه الضربة التي وحدت صفوف العالم وأعطت الدول مثالا حقيقيا مجسدا لما قد يحدث لو نشبت حربا نووية.. كان بإمكان بلادي أن ترد العدوان.. لكننا تصرفنا بحكمة.. وكذلك تصرفت جميع دول العالم.. فقد شاهد الجميع حجم الدمار الذي عم في المدينة والذي مسحها من على الخارطة.. هذا الدمار كان أهم حدث في تاريخ البشرية.. فهو الذي وحد دول العالم وجعلها تقوم بتدمير كل منشآتها النووية الحربية.. ليعيش العالم في سلام حقيقي منذ ذلك الحين.. ولا ينسى بلدي أبدا أن يشكر جميع بلدان العالم التي اتحدت وقامت بصنع قبّة هائلة الحجم تحوي المدينة المنكوبة بأكملها لتعزلها تماما عن العالم!!!!!.. تعزلها بالدمار الذي عم فيها وبتلوثها بالإشعاعات النووية!!!.. هذه المدينة المغطاة بقبة هائلة الحجم والتي أصبحت الآن مزارا للسائحين من جميع دول العالم.. ورمزا وتذكارا لنا جميعا لما قد يحدث لو فكرت إحدى الدول بشن حرب على دولة أخرى.

تصفيق حار من جميع ممثلي الدول في مبنى هيئة الأمم المتحدة.. و -كما ذكرنا- في هذه الأثناء.. في هذه الأثناء تحديدا.. مات بطل قصتنا مع حبيبته (سهام) تحت قبّة تلك المدينة الملوثة بالإشعاعات النووية غير عالمين بما يحدث خارج القبة.. غير عالمين بأن العالم كله قد اتحد وأوقف كل الحروب.. لقيا حتفهما وهما يظنان أن العالم كله ملوث وأن الجنس البشري قد انقرض!!.

علبة شوكولاتة

كل رجل يظن أن زواجه سيكون مختلفا عن الآخرين.. كل رجل يظن أن حبيبته ستظل متألقة إلى الأبد.. والواقع أن جميع الرجال حمقى!!.. لا أحد منهم يرى الحقيقة أبدا!!.. لأنه وبكل بساطة.. لا يوجد حب يدوم للأبد!!.. فالزوجة لا بد وأن تتحول مع مرور الأيام إلى امرأة بغيضة مملة تختلف تماما عن تلك الفتاة الرقيقة التي عرفها الرجل قبل الزواج!!.. بل وقد يزداد وزنها بعد الزواج لتتحول إلى برميل أو كتلة متحركة من الشحم!!.. وهذا ما أصبحت عليه زوجتي بالفعل!!.. فعندما أراها مستلقية في صالة المنزل.. لا أصدق أنها هي نفسها الفتاة الرقيقة التي أحببتها وتزوجتها!!.

لقد كانت زوجتي كسولة جدا.. تجلس أمام شاشة التلفاز طوال الوقت وتلتهم كل ما قد تتخيله من حلويات ومأكولات مليئة بالدهون.. حتى تضاعف وزنها عدة مرات بعد سنوات قليلة جدا من زواجنا وأصبحت كتلة من الشحم المتحرك!!.. هذا إذا تحركت أصلا!!.. لقد طلبت منها أن تترك عملها كي تهتم بنفسها وتهتم بالبيت.. وأن تترك مسألة المصاريف علي.. وقد انصاعت زوجتي لطلبي هذا وتركت عملها بالفعل.. لكنها بالمقابل تركت كل شيء آخر في حياتها!!.. فأصبحت تنام حتى فترة الظهيرة وتقضي فترة الليل بمشاهدة قنوات الأفلام أو التحدث عبر الهاتف مع صديقاتها.. حاولت أن أتحدث معها أكثر من مرة.. ولكن جميع نقاشاتنا تنتهي بشجار وصراخ لأتنازل أنا بقدرة قادر!!.. تماما كما يحدث في معظم الخلافات الزوجية.. فتمر الأيام لأقرر محادثتها مرة أخرى ويتكرر السيناريو دائما وأبدا!!!.

إنني إنسان ناجح جدا في عملي وأهتم كثيرا بصحتي.. ولا يمكن لمن يرى تلك المرأة أن يصدق أنها زوجتي!!.. فأنا حاصل على شهادة الدكتوراه في الصيدلة وأشغل مركزا كبيرا في إحدى شركات الأدوية التي يمتلكها والد زوجتي المليونير.. نعم.. لهذا السبب لم أترك زوجتي رغم إهمالها الشديد لي ولنفسها!!.. فثمن الطلاق واضحا.. خسارة منصبي في الشركة وكل ما أحلم به!!.. و -بالطبع- لم أفكر أبدا بالإنجاب.. إذ لم أكن واثقا أن زوجتي تصلح أن ترعى أي طفل!!.

مرت أربع سنوات عشت فيها عذابا نفسيا لا يوصف!!.. إلى درجة أنني كنت أدفن نفسي في العمل حتى أنسى كل ما يتعلق بزوجتي.. قبل أن تمر على ذهني ذات يوم تلك الفكرة المجنونة!!.. نعم.. هو بالضبط ما تتوقعونه!!.. لقد فكرت أن أقتل زوجتي.. بالطبع إنها واحدة من الأفكار المجنونة التي تمر على عقل الإنسان مرور الكرام.. جميعنا نفكر بهذه الطريقة أحيانا.. جميعنا تمر على عقولنا أفكار مجنونة لا تصدق وغالبا ما ننساها.. لكني لم أستطع أن أنسى تلك الرغبة المجنونة التي باتت تلح علي يوما بعد يوم.. خاصة حين تجلس زوجتي بجانبي وأسمع زفيرها الحيواني المنفر الذي يصدر عن كل شخص سمين.. إنني أكرهها.. أبغضها بغضا شديدا.. بغضا لا حد له!!.. كنت أنظر إليها مقهورا وأتخيل نفسي مع فتاة أخرى جميلة مثقفة مطلعة أسافر معها إلى كل مكان.. بدلا من تلك اللعينة التي تملأ معدتها كل يوم بأطنان من علب الآيس كريم والشوكولاتة!!.. إنها امرأة خاوية تماما.. توقف عقلها منذ أن تزوجنا فأصبحت غبية بلهاء كسولة.

ومع مرور الأيام.. بدأت فكرة قتلها تختمر في ذهني.. إنني أملك شهادة الدكتوراه في الصيدلة كما تعلمون.. وأعرف مليون طريقة لارتكاب جريمة قتل دون أن أثير شبهات الطب الشرعي.. حتى لا

أخسر كل شيء.. فالقاتل لا يرث ضحيته أبدا ([3]).. ظللت أفكر بأنسب الطرق لقتل زوجتي.. أفكر وأفكر وأضع أفضل السيناريوهات الممكنة!!.. ولم أجد أخيرا أفضل من وضع إحدى المواد السامة بكمية قليلة جدا في علبة شوكولاتة سأقدمها هدية لها!!.. هذه المادة ستتسبب بموت زوجتي بسكتة قلبية مفاجئة بعد ساعتين تقريبا وسيظن الطبيب الشرعي أن سبب الوفاة ارتفاع الضغط نتيجة السمنة المفرطة والأكل غير الصحي!!.. لن يشك أحد بشيء!!!.. كما أن أحدا لا يعرف إطلاقا طبيعة علاقتي بزوجتي.. فعندما نزور الأهل والأصدقاء.. يرانا الجميع متحابين نعيش حياة زوجية سعيدة!!.. إنني أجيد إخفاء مشاعري وأتحكم في دفتها تماما.. لذا سأكون بمأمن تام من شكوك الشرطة.

سيتطلب الأمر بالتأكيد بعض البكاء والانهيار بعد موت زوجتي.. وربما سأزهد الدنيا شهرا أو شهرين حتى يظن الجميع أنني أكاد أن أموت حزنا على موتها! ولا أهتم كثيرا بالإرث الذي سأحصل عليه!!.

وضعت خطتي أخيرا قيد التنفيذ.. فاشتريت علبة شوكولاتة فاخرة جدا.. على أنها هدية سأقدمها لزوجتي.. وأعددت العدة لكلام مؤثر عن حبي لها وعن عدم اكتراثي إن كانت سمينة أو رشيقة.. بل إنني أحبها كما هي.. وإنها أول وآخر حب في حياتي.. وإلى آخر هذا الهراء!!!..

أخذت العلبة معي إلى المختبر الخاص في مقر عملي بشركة الأدوية.. وهناك حقنت عدة قطع من الشوكولاتة بتلك المادة السامة.. ستموت زوجتي بعد أكل الشوكولاتة خلال ساعتين أو ثلاث على الأكثر بسبب المفعول البطيء للسم حتى لا يثير الأمر شكوك رجال الشرطة!!.. ولن يعرف مخلوق واحد ما حدث.. إنني واثق من هذا.

أخذت علبة الشوكولاتة بعد ذلك إلى أفضل محلات الهدايا لتغليفها.. لأعود بعدها إلى البيت مبتسما برقة وحنان!!!.. كانت زوجتي كعادتها جالسة أمام التلفاز تلتهم علبة آيس كريم حتى بدت شبيهة ببقرة تأكل علفها!!!.. أراهن أنها ستجد صعوبة بالغة في النهوض من مكانها!!.

رأتني قادما فألقت علي التحية بلا مبالاة.. لم تتوقع مني أبدا أن آتي إليها وأحتضنها بحنان وهو شيء لم أفعله منذ فترة طويلة!!.. احتضنتها بحب وحنان جارف!!.. قبل أن أخبرها بالكلام الذي تدربت على قوله عدة أيام.. حدثتها بالكثير من الهراء عن الحب والغرام.. وأنني أحبها وأريد أن أعيش معها بقية العمر مهما حدث وأن أبدأ معها صفحة جديدة.. وأنها مدعوة على العشاء غدا مساء في أحد أفخم الفنادق.. و.. وأنني لا أهتم إن كانت سمينة أو رشيقة وهذه العلبة الفاخرة من الشوكولاتة هي أكبر دليل على كلامي!!!!!..

لم تصدق زوجتي ما قلته لها لوهلة!!.. بل ظلت مشدوهة لهذا التصرف العجيب.. في حين أنني لم أنتظر طويلا لأرى ردة فعلها!!.. فقد تركتها متعذرا بإرهاقي الشديد ورغبتي بالنوم!!.

استيقظت من النوم صباحا فوجدتها نائمة.. بالطبع لن تستيقظ قبل الواحدة ظهرا.. هذا أمر مؤكد.. مهلا.. هل التهمت علبة الشوكولاتة؟ ؟!.. لا!!.. ما زالت العلبة سليمة لم تفتح!!.. تركتها بعد أن طبعت قبلة رقيقة على رأسها وخرجت ذاهبا إلى العمل.. لأقضي هناك أطول وأسود ساعات حياتي!!.. كنت أريد العودة إلى البيت مسرعا بعد الانتهاء من العمل!!.. أريد أن أتحقق من نجاح خطتي!!.. ولكن لا بد من ممارسة حياتي الطبيعية.. لا بد أن أبدو طبيعيا قدر المستطاع.. فذهبت إلى مكتب والد زوجتي وهو صاحب الشركة كما تعلمون لأعرض عليه بعض الأفكار الجديدة!!.. كنت أتصرف بشكل عادي تماما وبنشاط معتاد قبل أن يحين موعد الانتهاء

من العمل.. لأخرج بعدها بهدوء شديد لا يمكن أن يبث الشك في قلب أحد.. كنت حذرا جدا حتى في قيادتي للسيارة!!.

ظللت محتفظا بهدوئي إلى أن وصلت إلى البيت.. لأجد زوجتي مستلقية على الكنبة في صالة المنزل!!!.. هل.. هل أكلت الشوكولاتة وماتت؟ ؟!.. ولكن لماذا تبدو في كامل أناقتها؟؟؟!!!.. ولماذا توجد تلك الشموع الحمراء في كل مكان في صالة المنزل؟؟؟!!.. لا يهم.. سأفكر في هذا فيما بعد.. لأتأكد أولا من أن زوجتي قد ماتت!!.. توجهت إليها بحذر وقلبي ينبض بقوة.. أريد أن أتأكد من موتها!!.. لكنها.. لكنها فتحت عينيها فجأة بشكل أثار رعبي!!.. لتبتسم بحرج وتنهض بصعوبة بسبب سمنتها المفرطة.. ثم احتضنتني بقوة وهي تقول:

-حبيبي.. أعتذر لأنني غفوت قليلا وأنا أنتظرك.. لا يمكنك.. لا يمكنك أن تصدق تأثير كلامك علي أمس.. لقد شعرت حقا بأنني لا أستحقك.. شعرت بأنك أفضل زوج في العالم.. أعرف أنني أنحدر يوما بعد يوم.. وأنت -بالمقابل-تسير نحو النجاح يوما بعد يوم.. صدقني لم أنتبه لكل هذا وأراجع نفسي إلا بعد ما فعلته معي مساء أمس!!.

سكتت قليلا وهي تلتقط أنفاسها.. ثم قالت بلهفة:

-لقد استيقظت بعد خروجك بدقائق حتى أقوم بترتيب غرفة النوم والبيت بنفسي.. أردت أن تكون لمساتي على كل شيء في البيت دون الاعتماد الكلي على الخادمة.. ولم أغفُ إلا من شدة التعب والإرهاق.. س.. سأتغير.. أعدك بأنني سأتغير!!!.. لقد اتصلت بأحد الأطباء المتخصصين!!!.. وسأقوم بزيارته صباح الغد حتى أبدأ معه برنامجا لتخسيس الوزن.. أقسم لك بأني سأعود رشيقة كما كنت.. سأهتم بنفسي.. سأهتم بصحتي وبجمالي.. سأعود كما كنت حين تزوجتني.. أعدك بهذا.. قالت هذا قبل أن تعانقني بقوة وهي تقول:

-سأكمل دراستي.. أريد أن أصل إلى مستواك العلمي.. أعدك بأنك ستلحظ تغييرا إيجابيا كبيرا في حياتنا منذ هذه اللحظة.

كانت تتحدث بحماس بالغ.. حماس أفرحني كثيرا في واقع الأمر.. ولكن.. مهلا!!.. سألتها بقلق:

-ماذا.. ماذا عن علبة الشوكولاتة؟!.. أين هي؟ ؟!..

ردت مبتسمة:

-لقد أهديت العلبة إلى والدتك وشقيقك!!!!!!!.. لقد سافرا منذ ساعتين تقريبا لأداء فريضة الحج كما تعلم!!.. فذهبت لأودعهما في المطار وأهديتهما علبة الشوكولاتة و.....

ظلت تتحدث وتتحدث!!!.. دون أن أستمع إلى ما تقول.. بل طار عقلي وطار تفكيري!!!!.. وكاد أن يغمى علي وأنا أتخيل والدتي في الطائرة تأكل من علبة الشوكولاتة مع شقيقي!!!!.. كاد أن يغمى علي وأنا أعرف أنني سأكون السبب في مصرعهما..

سألت زوجتي وعيناي تنظران بهلع إلى أبعاد أخرى:

-هل.. هل أكلا منها؟!..

قالت بحماس دون أن تنتبه إلى نبرة صوتي:

-لقد أكل شقيقك من العلبة.. وأعطى والدتك بعضا منها أثناء الانتظار في المطار.. لقد أعجبتهم كثيرا.. إن ذوقك رائع يا حبيبي.. إن...

مرة أخرى لم أستمع إليها.. بل شعرت فجأة أن الدنيا تظلم أمامي.. شعرت فجأة بأن الدنيا تضيق من حولي حتى تكاد تخنقني.. شعرت بأن روحي تنسحب بهدوء من جسدي.. شعرت بأن حياتي قد انتهت ولن تعود أبدا كما كانت.. خاصة وأنا أتخيل والدتي وشقيقي يأكلان من تلك العلبة.. علبة الشوكولاتة!!..

ليلة حمراء

دائما ما يرتبط اسم هذه القصة بالفسق والفجور!!.. حسنا.. قصتي كانت ستتخذ هذا المنحى بالفعل.. قبل أن يحدث ما لم أتوقعه إطلاقا وأصطدم بمفاجأة مروعة لن تتوقعوها أبدا!!.

إنني امرأة مستهترة.. فقد كانت لي علاقات عابرة مع العديد من الرجال!!!.. معظمها من أجل المال.. وساعدني على هذا جمالي الأخاذ.. ولكن.. لكل شيء نهاية بالطبع!!.. إلا أنني لم أتوقع إطلاقا أن تكون نهايتي بهذا السواد!!.

بدأت قصتي عندما رسمت خطة كاملة للارتباط برجل الأعمال الشهير (........).. حيث ذهبت إلى مكتبه في ذلك اليوم وأنا بقمة أناقتي على اعتبار أنني طالبة في الجامعة أريد بعض المعلومات عن القطاع الخاص والعمل الحر... إلخ من هذا الهراء!!!.. كان تأثيري كاسحا على المكان.. إذ لم يستطع السكرتير رفض طلبي لمقابلة رجل الأعمال الشهير.. فاستمات لكي يحدد لي موعدا لمقابلته.. ولم يكن الأمر بعدها صعبا ليقع رجل الأعمال في حبائلي.. فبعد دقيقتين فقط من الحوار المصطنع حول القطاع الخاص.. تحولت دفة الحديث تماما عني وعن جمالي!!!.. وبالطبع أخبرته بكذبة طويلة تعتمد على أساس أنني ابنة رجل ثري وأنتمي لعائلة مشهورة!!!.. كان تأثيري كاسحا عليه كما ذكرت.. ولم يوافق على انتهاء اللقاء إلا بوعد مني للاتصال به في أقرب وقت بعد أن أخذت أرقامه الشخصية كلها!!.. هذا الأبله لم يكن ليتردد ليعطيني رقم حذائه لو طلبته!!.

بالطبع اتصلت به بعدها بيومين فقط للسؤال عنه بطريقة مدروسة تمهيدا للقائه مرة أخرى وإيقاعه في شراكي!!.. وشيئا فشيئا.. تكررت اتصالاتي به!!.. وتطور الأمر إلى لقاء ولقاءين.. ثم.. حدث ما كنت أنتظره!!!.. طلب مني قضاء أمسية رومانسية -على حد قوله- في منزله المطل على البحر في منطقة (البدع).. هذا رائع!!.. فقد وضعت خطة كاملة لأطلب منه مبلغا من المال لأنني متورطة في دين لم أخبر به والدي الثري.. و.. إلخ من الأكاذيب التي لن تهمكم معرفتها.

وفي الليلة الموعودة.. كنت في أبهى صورة قد يتخيلها إنسان.. لا يمكن أن يرفض لي طلبا وأنا بهذه الأناقة والرقة والجمال!!.. أنا واثقة من هذا.. هذا الأحمق سيقدم لي حياته كلها مقابل قبلة فقط.. فلن يكون طلب مبلغ 10 آلاف دينار أمرا صعبا إطلاقا.

ذهبت إلى منزله الفاخر في منطقة (البدع) المطل على البحر.. ووجدته هناك وحيدا بانتظاري.. وعلى وجهه أرق ابتسامة ممكن أن يرسمها رجل على وجهه القبيح!!.. جلسنا في غرفة المعيشة تحت أضواء الشموع والموسيقى السخيفة الحالمة.. لكنها ضرورية كما تعلمون!!.. فالأمر يتطلب بعض الرومانسية قبل أن أطلب منه ما أريد من مال!!.. لم أستعجل.. إذ رحت أتحدث معه أولا عن الحب والغرام والهراء!!.. وعن اللحظة التي رأيته فيها وغيرت حياتي إلى الأبد.. وصارحني هو الآخر بأنه لا يعرف ما حدث له عندما رآني.. إذ شعر أن شيئا ما قد تحرك في قلبه.. وهو الذي ظن أنه أقفل قلبه بمليون قفل بعد انفصاله عن زوجته منذ ثلاث سنوات كما يدعي!!!.. كانت لحظات هادئة جدا قضيناها معا.. أو قضاها هو معي!!.. لأن عقلي كان مشغولا بانتظار اللحظة التي أراها مناسبة لأطلب منه المبلغ!!!.. و.. بعد قرابة نصف الساعة استأذنته للذهاب إلى الحمام.. فعلت هذا حتى أختلي بنفسي قليلا!!.. إذ شعرت ببعض التوتر قبل أن أطلب منه المبلغ!!.. أردت أن ألتقط أنفاسي ثم أعود إليه.. لأبدأ بعدها التمثيلية!!.. ما هي التمثيلية؟ ؟!.. في

البداية قليل من التفكير والنظر إلى أبعاد أخرى بعين قلقة.. قبل أن يسألني عن سبب انشغال ذهني.. فأتملص.. ليصر على معرفة ما يقلقني.. ثم أخبره بما أريد ودموعي تنهمر!!!.. هذه هي خطتي بكل بساطة!!.. وهي خطة تنجح مع كل ثري أحمق.. بالطبع لا بد قبلها من بعض القبلات والاحتضان!!..

استأذنته للذهاب إلى الحمام -كما أخبرتكم-فأشار لي بيده أن لا بأس وقال لي مبتسما:

-إنه بجانب غرفة نومي..

ابتسمت بدوري ونهضت.. ورحت بنظرة متفحصة أنظر إلى فيلته.. كانت فيلا راقية جدا من دور واحد!!.. يظهر أن الوغد يستخدمها لعلاقاته العاطفية.. هذا واضح!!.. أثاث فاخر جدا!!.. إضاءة خافتة.. حمام أنيق رائع أجمل كثيرا من غرفة نومي!!!.. دقائق قضيتها في الحمام لألتقط أنفاسي وأتأكد من ماكياجي.. قبل أن أخرج متجهة إلى الصالة.. فسمعته يتحدث عبر هاتفه النقال مع سكرتيره الشخصي كما يبدو.. و.. لا أعرف.. لا أعرف لماذا فعلت هذا!!!!.. إننا نفعل العديد من الأشياء في حياتنا قبل أن نفكر!!.. ولا نتساءل لماذا فعلنا كذا وكذا إلا بعد أن نفعله!!!.. فقد رأيت باب غرفة نومه مواربا.. لا أدري لماذا دفعت الباب بهدوء لأرى غرفة نومه!!.. ألقيت نظرة سريعة على الغرفة.. إنها رائعة.. فاخرة جدا.. ولكن!!.. مهلا!!.. هذه الملابس النسائية!!.. هذا الوغد الكاذب.. يقول إنه قد طلق زوجته منذ ثلاث سنوات!!.. فتحت دولاب غرفته وإذا بملابس نسائية متنوعة.. إنه متزوج إذا!!!.. ربما تكون زوجته خارج البلد!!.. جميع الرجال لعوبون.. دائما وأبدا أقول هذا!!.. لا يهم.. ولن يهمني إن كان يكذب علي!!.. استدرت خارجة من الغرفة إلى صالة المنزل.. و.. قبل أن أخرج من الغرفة بلحظات.. سمعت من يطرق باب المنزل بقوة!!!.. تسمرت في مكاني للحظة.. قبل أن يهرع إلى الحمام مسرعا يبحث عني.. لم يجدني بالطبع.. نظرة سريعة إلى غرفة النوم ليجدني فيها.. لم يكترث إطلاقا لدخولي غرفته.. بل قال بصوت قلق متوتر:

-زوجتي.. إنها هنا.. أرجوك اختبئي.. اختبئي بسرعة!!!!.

قالها دون أن ينتظر أي رد مني.. إذ خرج بعدها مسرعا وعلامات القلق تغزو ملامحه!!.. شعرت بذعر هائل.. لم أخطئ إذا!!!.. لقد كان الوغد يكذب فعلا.. إنه متزوج!!.. يا للهول.. ستحدث فضيحة هنا.. إن زوجته لن تسكت أبدا دون شك!!.. نظرت سريعا إلى أي مكان يصلح للاختباء.. بالطبع.. مكان الاختباء الأزلي.. تحت السرير!!!.. دسست نفسي تحت السرير وراح قلبي يخفق بقوة!!.. ثم سمعت أقبح صوت نسائي في حياتي!!!.. كأنه صوت ساحرة!!.. قلبي يخفق كالطبل وأنا مختبئة تحت السرير.. وأسمع زوجته تشتمه وتتهمه بالخيانة و..:

-أعلم أنك هنا برفقة فتاة.. فأنت لا تأتي إلى هذا البيت إلا برفقة الفتيات!!.. هل تظنني أجهل هذا؟!.. إنني أعرف كل خباياك وأعرف أي وغد أنت..

كان زوجها يتحدث بلهجة رجل ذليل خائف وهو يقسم لها أن لا أحد في البيت سواه.. وأنه يحبها.. حوار معروف نسمعه ونراه في المسلسلات كثيرا!!.. شجار استمر أكثر من عشر دقائق.. ثم:

-سأبحث في كل ركن في البيت..

قالتها زوجته بصرامة بصوتها المخيف.. قالتها وجمدت الدماء في عروقي!!.. اللعنة.. ماذا

سأفعل؟ !!.. كان قلبي يخفق بقوة ورعب!!.. لحظات قبل أن تأتي زوجته إلى غرفة النوم!!.. لم أرَ وجهها بالطبع.. ولكن.. لا شك أنها امرأة أرستقراطية.. فهي ترتدي كعبا عاليا ورائحة العطور الفرنسية تفوح منها!!.. أرى قدميها واقفتين عند عتبة باب غرفة النوم.. ثم دخلت سريعا إلى الغرفة.. ثوان قليلة قبل أن تنظر مباشرة تحت الفراش وتراني!!!!..

-أخرجي أيتها العاهرة!!!..

قالتها بصوتها البغيض الشبيه بصوت ساحرات القرون الوسطى!!.. فوجدت نفسي أرتجف بقوة والدموع تملأ عيني!!.. زحفت برعب خارجة من تحت السرير وإذا بأقبح امرأة رأيتها في حياتي!!.. كيف يتزوج رجل أعمال معروف بامرأة كهذه!!!.. امرأة قبيحة جدا ضخمة الجسد تضع طنا من الماكياج على وجهها حتى بدت كالمهرجين!!.. ولكن.. لسبب ما بدا وجهها مألوفا!!.. أنا أعرف تلك المرأة.. أين رأيتها؟!.. أين؟!.. توقف عقلي عن التفكير فجأة وأنا أرى الزوجة ممسكة بسكين مطبخ وكأنها تنوي قتلي!!.. تخيلوا هذا!!!.. صرخت برعب حقيقي وبأعلى صوتي منادية زوجها الوغد الذي تركني وحيدة هنا.. لتضحك زوجته ضحكة طويلة ساخرة بغيضة وهي تقول:

-هذا الجبان.. هل تظنين أنه سينقذك؟؟!!.. ستموتين الآن.. سأقتلك أيتها العاهرة الحقيرة!!..

قالتها ودفعت السكين في بطني!!!.. ثم أخرجتها لتطعنني في بطني مرة أخرى وأخرى.. وقعت على الأرض والدماء تتفجر من جسدي.. لم أشعر بالخوف أو الألم.. فقط الذهول!!!.. الذهول أن أموت بهذه الصورة.. وأنا التي ظننت أن أمورا كهذه تحدث للآخرين فقط.. أو تحدث في الأفلام فقط.

تطلعت إلى وجه الزوجة وأنا ألفظ أنفاسي الأخيرة.. أمعنت النظر في وجهها ثم شهقت بقوة.. يا للهول!!.. الزوجة.. إنها.. إنها هو.. إنه الزوج متنكر بلباس امرأة!!!!.. لا شك أنه غير مظهره أثناء تحول شخصيته إلى امرأة.. نعم إنه الزوج.. أرى ملامحه الآن واضحة.. إنه يرتدي ثيابا نسائية ويضع الماكياج بشكل عشوائي على وجهه!!.. يظهر أنه يعاني ازدواجا في الشخصية!!.. وجميع الثياب النسائية التي رأيتها في غرفة نومه يرتديها هو أثناء تغيير شخصيته!!!.. لقد كان يتحدث مع نفسه في غرفة المعيشة مقلدا صوت امرأة ويبدل ثيابه بنفس الوقت منتحلا شخصيته الأخرى.. لا أعرف الكثير عن انفصام أو ازدواج الشخصية.. ولكن من الواضح أنه يعاني من شيء كهذا.. ازدواج نسائي.. مصطلح غريب لا أعرف إن كان صحيحا علميا أم لا!!.. ولا أعتقد أنني سأعيش لأعرف.. إنني أموت والذهول يشلني تماما!!.. إنني ألفظ أنفاسي الأخي.....

العائدون

-هل أنت بخير يا دكتور (باسل)؟!..

سمعت هذا الصوت وكأنه يأتي من بئر عميق.. حاولت أن أستيقظ من سباتي وأفتح عيني لكني عجزت عن ذلك.. مهلا.. من الذي أيقظني؟!.. أين أنا؟!.. عقلي مشوش تماما!!.. أحتاج بعض الوقت لأعرف.. الأسئلة تصطرع في ذهني.. ثم.. أحاول مرة أخرى أن أفتح عيني.. ما زالت الرؤية غير واضحة بعد هذا السبات العميق!!.. لكنني أتحسن.. و..

-دكتور (باسل)؟!.. هل تسمعني؟!..

التفت ناحية مصدر الصوت بصعوبة!!.. رؤية ضبابية بدأت تتحسن تدريجيا.. رأيت صاحب -أو صاحبة-الصوت أخيرا.. إن الغشاوة تذهب من عيني شيئا فشيئا لأرى فتاة رائعة الجمال!!.. هادئة الملامح.. ترتدي ثيابا غريبة.. لكنها نظيفة للغاية ومرتبة!!..

-دكتور (باسل)؟ ؟!.. هل أنت بخير؟؟!

سألتني للمرة الثالثة.. فقلت بصعوبة شديدة:

-ن.. نعم.. أ.. أ.. أنا ب.. ب.. بخير.. أحتاج.. ب.. بعض الو.. الوقت..

قاطعتني الفتاة بحزم رقيق وهي تقول:

-هل تعرف في أي عام أنت؟!!

هززت رأسي بصعوبة كناية عن الجهل!!..

فقالت بحذر:

-أنت في عام 2450 م!!.. لقد عرفنا من خلال أبحاثك التي وجدناها في هذا القبو السري أنك قد توصلت إلى طريقة للسبات الصناعي.. وقد ذهبت في بياتك الصناعي عام 2147 م بعد الحرب العالمية الثالثة.. على أمل أن تعود يوما بعد أن تنتهي الحرب ويزول الدمار!!.. هل تذكر كل هذا؟!!.. هذا ما كتبته في مذكراتك..

نظرت إليها بحزن شديد.. إنها تعيد إلي تلك الذكرى الأليمة.. لا أنسى أبدا ذلك اليوم الأسود.. عندما وصل الصراع بين دول العالم العظمى إلى أقصى درجاته.. أتذكر جيدا كيف كنت أعمل كالمجنون قبل تلك الحادثة بسنوات قليلة وأنا أحاول التوصل إلى طريقة للسبات الصناعي!!.. وأتذكر أنني توصلت إلى ذلك بالفعل بعد أبحاث ودراسات شاقة.. كنت أعمل طوال الوقت تقريبا دون نوم.. إلى أن توصلت إلى اختراع تلك الآلة!!!.. آلة تشبه كثيرا الآلات التي تستخدمها الفتيات لإضفاء اللون البرونزي إلى الجسم.. مع مدلّك صناعي يحافظ على حيوية أعضاء الجسم طوال فترة السبات!!.

وقد وضعت جهازي الثمين هذا في قبو مخفي في منطقة بعيدة عن العمران قبل اندلاع الحرب النووية بأيام قليلة.. وذهبت في بيات صناعي منذ ذلك الحين.. إذ كان كل شيء يبشر بانطلاق شرارة هذه الحرب.. فاخترت الهرب والنجاة بهذه الطريقة!!.. وها أنا الآن أستيقظ!!.. مهلا!!.. هذه الفتاة تقول إننا في عام 2450 م!!!.. يا إلهي.. كل شخص عرفته في حياتي.. كل إنسان

تحدثت إليه في حياتي قد مات!!!!.. أشعر.. أشعر بغصة في حلقي.. أشعر ب..

-دكتور؟!!!

قطع ذلك الصوت خواطري مرة أخرى.. فالتفت منزعجا إلى الفتاة وهي تقول لي بابتسامة عذبة:

- يجب أن تحاول النهوض.. لقد وجدناك صدفة لحسن الحظ.. ويعلم الله كم كان سيطول سباتك الصناعي لو لم نجدك!!..

سألتها بقلق وقد بدأت أشعر بتحسن كبير:

-أخبريني قليلا عن العالم!!.. كيف تعيشون الآن؟؟.. من يحكم العالم؟؟..

قاطعتني مهدئة:

-لا تخش شيئا.. الأمور ليست بالصورة السوداء التي قد تتخيلها.. فبعد الحرب النووية التي قضت على ثلاثة أرباع سكان العالم عام 2147 م.. عاشت البقية الباقية من البشر حياة قاسية حتى أصبح الناس يموتون بالملايين كل يوم بسبب التلوث الإشعاعي ونقص الغذاء.. ولم يتبق من سكان الأرض سوى آلاف قليلة!!!..

سكتت قليلا وكأنها تكره الحديث عن هذا الأمر.. ثم زفرت بقوة وهي تقول:

- كانت البشرية على وشك الانقراض!!.. لولا أن أحد العلماء الناجين قد توصل إلى لقاح يحمي الإنسان من تأثير الإشعاعات النووية.. وراح اللقاح يعمل بشكل إيجابي على البشر وحتى على الحيوانات التي كانت بدورها على وشك الانقراض!!.. وهكذا بدأت عجلة الحياة تدور شيئا فشيئا!!.. فبعد الحرب بحوالي عشرة أعوام.. بدأت البشرية -أو ما تبقى منها-تستعيد السيطرة على زمام الأمور.. وكان أول القرارات وأهمها عدم تقسيم كوكب الأرض إلى دول!!.. فقد اتفق الجميع على بناء دولة واحدة باسم كوكب الأرض.. وتم انتخاب مجموعة من العلماء والحكماء كي يحكموا العالم بما في صالح الجميع.. لقد أرجعنا الأمور أفضل مما كانت عليه قبل الحرب.. لأننا نستخدم العلوم في خدمة الإنسان والبيئة.. فلا نصنع الأسلحة.. ولا نتعامل بالمال لأنه سبب رئيسِ للصراعات.. فأصبح كل إنسان ينتج لصالح إخوته البشر..

سكتت قليلا لتلتقط أنفاسها.. ثم قالت بحماس شديد:

-واستطعنا أن ننقذ الجنس البشري من الانقراض.. لقد تضاعف عددنا عدة مرات خلال الثلاثة مئة عام الماضية.. إن تعداد البشرية الآن حوالي مئة وخمسين ألف نسمة!!.

انتهى حديثها!!.. وظللت صامتا أنظر إليها فترة طويلة قبل أن أستوعب أنها انتهت!!.. ثم..

-دكتور (باسل)؟؟!

-همم!!!

سألتني باهتمام:

-ما الذي يشغلك؟؟

قلت وعلى وجهي آثار تفكير عميق:

-ما زلت عاجزا عن استيعاب أن عمري الفعلي هو 350 عاما!!!.. إنني أكثر المعمرين في تاريخ

البشرية بسبب حالة التجميد الصناعي التي وضعت نفسي فيها!!.. أريد.. أريد أن أخرج من هذا المكان.. أريد أن أرى مجتمعكم..

قالت ببساطة محببة:

-هذا حقك.. أنت واحد منا الآن!!..

نهضت أخيرا بملابسي البيضاء التي أعطوني إياها والتي تشبه ثيابهم كثيرا!!.. ثياب بيضاء فضفاضة مريحة.. لأخرج بعدها وأرى الروعة!!.. أرى الجمال!!.. عالما طاهرا جميلا بلا تلوث ترى فيه الناس مبتسمين بسطاء.. حتى لتشعر أنك وسط عائلة كبيرة!!.. هذا هو بحق العالم الذي طالما حلمت به!!.. لقد كان السبات الصناعي الذي وضعت نفسي فيه يستحق فعلا!!.

تنفست الصعداء!!.. وارتسمت ابتسامة وضاء على وجهي!!.. لا أعرف أحدا في هذا العالم لكنني سأكون صديقا وأخا للجميع دون شك.. مهلا!!.. لقد نسيت أمرا في منتهى الأهمية!!.. هناك شيء غير عادي يحدث هنا!!.. التفت إلى الوراء لأجد الفتاة التي أيقظتني من غيبوبتي وهي تبتسم تلك الابتسامة الرائعة.. ثم سألتها بحذر:

-لقد ذكرت أنكم وجدتم مكاني صدفة!!.. فكيف وجدتموني؟؟!!

قالت الفتاة بحرج شديد:

-الواقع أن..!!.. لا أعرف كيف أقول هذا!!..

ثم تنحنحت وكأنها تستجمع شجاعتها لتقول:

-سأكون صريحة معك.. في الواقع إننا وجدناك منذ فترة طويلة لكننا كنا نخشى إيقاظك!!.. كنا نخشى من أنك ما زلت تحمل أحقاد الإنسان القديم وحبه للمادة.. و..

قاطعتها بشيء من الحدة:

-من الواضح أنكم أيقظتموني لأنكم بحاجة إلي!!.. أليس كذلك؟ ؟!.. هذا استنتاج لا يحتاج إلى ذكاء!!..

تطوع أحد الشبان الذين معها ليجيب بلهجة مهذبة جدا:

-في الواقع إن كوكب الأرض مهدد مرة أخرى!!!.. هناك نيزك ضخم يقترب منا.. ومن الممكن أن يسبب تدميرا هائلا ويقضي تماما على الجنس البشري.. ولا يوجد أي سبيل لإيقافه!!..

سألته بقلق:

-و.. وماذا سنفعل؟؟!!

قال لي بصدق:

-أنت الوحيد الذي يستطيع منع هذا الشيء من الحدوث.. إننا نملك تكنولوجيا متطورة جدا لكنها تكنولوجيا سلمية لا يمكن استخدامها في التدمير.. كل ما صنعناه طوال القرون الثلاث الماضية كان لرفاهية الإنسان.. لذا نحن في ورطة رهيبة..

سألته مرة أخرى والقلق يتصاعد:

-لم تجب على سؤالي!!.. ماذا أستطيع أن أفعل؟ !!..

قال لي متوسلا:

- هناك قمر صناعي قديم جدا صنعته حضارة العالم القديم.. لقد كان يستخدم للأغراض العسكرية.. وقد تأكدنا بواسطة أجهزة الرصد لدينا أنه لا يزال يعمل.. لذا فإننا نأمل منك الدخول إلى نظام هذا القمر الصناعي واستخدامه لتوجيه صواريخ نحو النيزك قبل دخوله مجالنا الجوي!!..

قلت له متفهما:

-بالطبع أنا رهن إشارتكم.. فهذا النيزك يهدد عالمي أنا أيضا.. إنني جزء من هذا المجتمع الآن..

قالت الفتاة بلهفة:

- ماذا ننتظر إذا؟ ؟!.. هذا النيزك سيضرب الأرض بعد حوالي ثلاثة أسابيع من الآن.. ونحن أيقظناك بعد أن عرفنا أنك الأمل الأخير.. والناس تجهل تماما ما سيحدث!!.. فقد أخفى مجلس الحكماء الأمر عن العامة حتى لا يحدث أي ذعر جماعي!!..

لم ننتظر أكثر من ذلك.. قادوني جميعا في سيارة غريبة تشبه كثيرا السيارات التي كنت أراها في أفلام الخيال العلمي.. سيارة تعمل بالكهرباء حتى لا تخرج منها أي ملوثات كما عرفت منهم!!.. ذهبنا جميعا إلى أحد المراصد التي تحوي أجهزة كمبيوتر متقدمة جدا حتى أستخدمها لاختراق شفرة القمر الصناعي ومن ثم استخدامه لضرب النيزك..

دخلنا مسرعين وكأن النيزك سيضرب الأرض بعد دقائق.. ثم جلست أمام شاشة الكمبيوتر.. فقال لي أحدهم مسرعا:

-هذه إحداثيات النيزك.. إنها موجودة أمامك على شاشة الكمبيوتر!!..

أومأت برأسي متفهما.. وبدأت العمل.. كانت الأعين تترقبني وحالة من التوتر تشوب المكان.. و.. لم تكن المهمة عسيرة!!.. نصف ساعة فقط للدخول إلى نظام الأسلحة في القمر الصناعي لأوجه الصواريخ إلى النيزك.. وقبل أن أضغط على زر الإطلاق تذكرت أمرا مريبا.. أمرا يثير الشك..

-لحظة..

قلتها لهم بحدة!!.. ثم أردفت بشك كبير:

-هناك أمر مريب يحدث هنا.. أنا لا أصدق كلامكم!!!!..

التفتت إلي الأعين بقلق.. فقلت لهم بعصبية:

-أرى أنكم تملكون راصدا ضخما.. فلماذا أعطيتموني رقم الإحداثيات فقط؟ !!.. لماذا لا نرى النيزك على شاشة الراصد؟ ؟!..

لم يتوقع أحد هذا السؤال إطلاقا.. فالتقت أعينهم بقلق وكأنهم ينتظرون من أحد أن يشرح لي الأمر.. وأمام هذا التردد والصمت.. وجدت نفسي أثور غاضبا لأقول بغيظ:

- ماذا عن ملحمة الأخوة التي أتحفتموني بها؟؟!!.. تتحدثون جميعا عن مجتمع مثالي.. ثم تمارسون ألاعيب تثير الريبة وتنم عن خبث؟!..

قال أحد علمائهم بصدق:

-يجب أن نخبره بما يحدث.. هذا ليس عدلا..

بدا القلق على وجه الجميع.. ولكن الرجل حسم أمره وقال لي بتوتر:

-دكتور (باسل).. سأجعلك ترى الهدف الذي ستضربه!!..

ذهب ليعبث ببعض الأزرار على شاشة الكمبيوتر.. ثم!!.. رأيت شيئا لم أتوقعه على الإطلاق!!.. مكوكا فضائيا هائل الحجم!!.. لا.. ليس سفينة فضائية من كوكب آخر!!.. بل هو مكوك أرضي الصنع!!.. هذا واضح.. أذكر تلك التصاميم جيدا!!!.. التفت إليهم متسائلا وعلى وجهي علامات دهشة واستفهام لا حصر لها!!!.. إنني.. إنني لا أفهم شيئا!!..

تنحنحت الفتاة لتقول:

-دكتور (باسل).. لن نخدعك أكثر من هذا.. هذا المكوك الفضائي القادم إلينا سيعيد الأرض إلى ما كانت عليه قبل ثلاثة مئة عام!!..

سكتت قليلا قبل أن تتنهد بقوة وتقول:

-عندما بدأت الحرب العالمية الثالثة قبل ثلاثة مئة عام.. عرف بعض كبار القادة في العالم فداحة الخطأ الذي ارتكبوه.. فهرب معظم الزعماء والمسؤولين والأثرياء بمكوك فضائي صنع للطوارئ وبه ما يكفي من مؤن لفترة طويلة.. كان عددهم حسب توقعاتنا يفوق الألفين.. لقد رحلوا إلى الفضاء على أن يعودوا إلى الأرض بعد خمس سنوات!!.. أنت تعرف بالطبع أن الزمن يختلف في الفضاء عما هو عليه في الأرض!!.. فخمس سنوات في الفضاء البعيد قد تعادل مئات الأعوام في زمن كوكب الأرض.. فلو أنت....

قاطعتها قبل أن تكمل:

-أعرف.. أعرف.. فلو كان لي شقيق توأم.. وقد سافر إلى الفضاء لمدة سنتين مثلا.. فسيعود إلى الأرض وعمره لم يزدد إلا سنتين فقط.. بينما سأكون أنا عجوز في السبعين من العمر مثلا!!.. فالزمن في الفضاء يختلف عن الزمن في الأرض (4).. أليس هذا ما تودين قوله؟؟!.

قالت مبتسمة:

- بالضبط!!.. المشكلة أن هؤلاء الزعماء والأثرياء والقادة عائدون الآن بأسلحتهم وكبريائهم ليحكموا العالم مرة أخرى.. ولن نستطيع الصمود أمامهم.. فنحن لا نملك حتى أسلحة للدفاع عن أنفسنا!!..

سكتت قليلا.. ثم قالت بصدق:

-لا نريد هؤلاء الأوغاد أن يحكموا العالم يا دكتور.. أرجوك ساعدنا.. نحن نملك الأمل لنعيش حياة رائعة على كوكب الأرض الحبيب الذي دمره هؤلاء بطغيانهم وجبروتهم!!.

نظرت إليها طويلا.. ثم قلت بتردد شديد:

-إنكم تطلبون مني قتل عدد هائل من البشر!!.. هذا أمر عسير جدا.. أنا إنسان مسالم ولا أستطيع أن أقتل أحدا!!..

قالت لي الفتاة برجاء:

-إنك تنقذ كوكب الأرض يا دكتور.. تنقذ عالما مسالما جميلا طالما حلم به الإنسان.. انظر

حولك لتعرف مدى صدق كلامي.. الجميع سعداء يعيشون دون حروب ومجاعات وأمراض في عالم لا توجد فيه دول وطوائف.. جميع البشر إخوة.. ألا يستحق هذا أن ندافع عنه بكل قوتنا؟؟!!.

نظرت إليها ولم أرد.. فقط راح شريط الذكريات يعمل بعنف!!.. أتذكر جيدا الصراعات!!.. أتذكر جيدا الجرائم والقتل والمجاعات والحروب!!.. أتذكر آلاف الموتى كل يوم!!.. أتذكر جيدا عالما ملوثا.. أتذكر.. وأتذكر.. وأتذكر.. نعم هذا هو القرار الصحيح.. سأحمي عالمنا.. سأحمي كوكبنا.. نظرت إليهم مبتسما.. و.. ضغطت الزر!!.. وبعد لحظات.. شاهدنا في الراصد مكوكا فضائيا ينفجر بعد أن اصطدم بصاروخ موجه من قمر صناعي قديم.. صاروخ صنعته عقول إجرامية هي نفسها التي تقود هذا المكوك لتعود إلينا بسمومها وأفكارها ونواياها الخبيثة!!.. انفجر المكوك!!.. وتنفسنا الصعداء.. لتتعالى صيحات الجميع ويقتربون مني مهنئين!!.

خرجنا بعدها من المرصد.. لأبدأ معهم حياتي الجديدة.. حياة رغيدة وهانئة مبتعدا عن كل هموم الماضي.

الكنز

لا أعتقد أن أحدا في (الكويت) قد مر بالتجربة التي مر بها جدي رحمه الله.. تلك التجربة التي لم يخبر بها أحدا سواي ولم يعرفها أحد غيري على الإطلاق!!.. القصة قديمة جدا.. بدأت أحداثها في بدايات عام 1938 عندما قرر جدي الهجرة من (الكويت) إلى أوروبا!!.. تخيلوا هذا!!.. في فترة البحر وأيام الغوص والبحث عن اللؤلؤ.. كان جدي يعلم أن هناك حياة أخرى في الغرب وواقعا أفضل من الذي نعيشه!!.

بالطبع لم يكن طريق الهجرة سهلا على الإطلاق.. فقد كان مفروشا بالشوك!!.. حيث مر جدي بصعوبات عديدة لا توصف.. ففي تلك الفترة لم تكن الأمور بالسهولة التي هي عليها الآن.. لم تكن هناك جوازات سفر وتأشيرات و.. إلخ من الأوراق والمستندات التي تطلبها الدول الأوروبية!!.. ولكن رغم هذا.. تمكن جدي من السفر إلى (هولندا)!!.. لقد فعل هذا بمعجزة على حد قوله.. ولن أخوض في تفاصيل السفر لأنها قصة أخرى ربما سأخبركم بها يوما.. ولكن المهم نجاحه فيها.. فقد قام جدي بالفعل بالسفر إلى (هولندا) والبحث عن واقع آخر أفضل من الفقر الذي كان يعيشه في (الكويت) في تلك الفترة من الزمان.

كان جدي شابا في العشرين من العمر يملك كل الطموح الذي يملكه شاب في مثل عمره.. وكان يأمل في الحصول على وظيفة جيدة هناك.. وأن يدرس ويتعلم ويبني لنفسه حياة جديدة بعد أن حقق الأمر الصعب وهاجر إلى (هولندا) فعليا!!.. ولكن.. لم يتوقع جدي ولم يتوقع أحد أبدا ما سيحدث هناك!!.. فبعد شهور من وجوده في (هولندا) وقبل أن يتمكن من التقاط أنفاسه.. بدأت الحرب العالمية الثانية!!.. ليصاب اقتصاد أوروبا بالشلل ويضطر جدي للعمل في أحد المطاعم الصغيرة بأجر مضحك.

بل وازدادت الأمور سوءا!!.. ففي غضون سنتين فحسب.. اجتاحت القوات النازية جميع الدول الصغيرة المجاورة لـ (ألمانيا) كـ(بلجيكا) و.. (هولندا) بالطبع.. ليقع جدي في مأزق مخيف ومصيدة تنذر بمصير أسود.. فهو عاجز عن العودة إلى (الكويت) بسبب صعوبة التنقل وانعدام وسائل المواصلات تقريبا تحت الاحتلال النازي.. خاصة أن (هولندا) قد أصبحت -مع بعض الدول الأوروبية الصغيرة- ساحة لتلك المعارك والهجمات الشرسة التي شنها الحلفاء ضد (ألمانيا)!!.

لقد حاول الخروج بشتى الوسائل.. لكنه عجز عن ذلك تماما.. وبالطبع فقد فرصة العمل التي حصل عليها في ذلك المطعم وأصبح في غضون أيام قليلة مشردا بعد أن نفدت أمواله!!.. كان غير مصدق لما يحدث له!!.. إنه الكويتي -وربما العربي-الوحيد في هذا الجحيم وسط القصف الذي لا ينتهي والحرب التي بدت كأنها ستستمر للأبد!!.. فأصبح يقتات من القمامة وينام على الأرصفة.. حتى بدا بثيابه الرثة ولحيته الطويلة كأحد المشردين الذين نراهم في شوارع (نيويورك) أو (لندن).. وازدادت الأمور سوءا بعد أن أصيب جدي بحمى شديدة وقع بسببها على الأرض مغشيا عليه يوما كاملا دون أن يهتم لأمره أحد!!.. إلى أن وجده شخص مجهول وحمله بنفسه إلى مخبأ ما!!.

وهناك.. ظل جدي طريح الفراش ثلاثة أسابيع كاملة يصارع فيها تلك الحمى بسبب نقص الأدوية وعدم وجود رعاية طبية من أي نوع في ظل هذه الحرب الهائلة.. وكاد جدي أن يلقى حتفه لولا العناية الإلهية ولولا رعاية ذلك الشخص المجهول له!!.. وشيئا فشيئا.. بدأ يتعافى من تلك

الحمى.. وبدأ يستعيد وعيه ويشعر بتحسن كبير سوى من بعض الآلام البسيطة التي كان يعانيها في ظهره!!!!.. آلام مجهولة لا تفسير لها!!!.. لكنه استيقظ بصحة أفضل كثيرا على كل حال ليجد نفسه في قبو مجهول كبير الحجم نسبيا مع عجوز هولندي ملابسه رثة جدا.. له لحية طويلة ووجه ملوث بالغبار والعرق حتى بدا كأحد علماء القرون الوسطى!!.. لكنه رغم ذلك.. كان أفضل حالا من جدي.

كان ذلك العجوز يطعم جدي ويهتم بأمره وكأنه ابنه (أرجوكم لا تنسوا أن عمر جدي في ذلك الوقت لم يتجاوز العشرين عاما).. أياما طويلة ظل فيها الاثنان مختبئين في ذلك القبو يقتاتان من النباتات وبعض الأطعمة الرديئة.. لكن الوضع أفضل بكثير بالطبع مما كان عليه جدي من تشرد.

أيام طويلة مرت تعلم فيها جدي الشيء الكثير من اللغة الهولندية ليصبح صديقا حميما لذلك العجوز الطيب.. بل وكان يناديه بلقب (أبي).

وفي ذات يوم في القبو.. تحدث العجوز الهولندي عن كنز لا يقدر بثمن!!.. وأنه قد أعطى ذلك الكنز هدية لجدي!!.. بالطبع لم يفهم جدي ما يعنيه هذا الكلام.. لكنه لم يهتم لذلك كثيرا خاصة عندما أخبره العجوز أن هناك سفينة ستبحر من (هولندا) متجهة إلى (مصر) وهي مغامرة بالغة الخطورة في تلك الفترة.. فالطريق البحري إلى (مصر) كان خطرا جدا أثناء الحرب العالمية الثانية ولكنها الطريقة الوحيدة للعودة إلى (الكويت)!!.. كانت مخاطرة لا بديل عنها.. خاصة أنه لم تكن هناك أي بوادر لانتهاء الحرب التي انتهت فعليا بعد خمس سنوات من تلك الحادثة.. لم يملك جدي خيارا آخر.. فهذه قد تكون فرصته الوحيدة للهرب.. والأمر يستحق المغامرة بالفعل.. فقرر أخيرا الرحيل على متن تلك السفينة!!.

كان الوداع مؤثرا جدا.. فجدي يعلم جيدا أنه لن يرى ذلك العجوز الطيب مرة أخرى.. وقد كرر العجوز وصيته قبل الوداع:

-لا تنسَ!!.. لقد تركت لك كنزا هائلا يا ولدي.. استغله جيدا..

لم يثر هذا الكلام اهتمام جدي إطلاقا.. لأنه كان يبحث عما هو أهم من الثراء ومن كل كنوز الدنيا!!.. كان يبحث عن الأمان!!!.. ويفكر بعملية الهرب الانتحارية التي ستتطلب منه قضاء أياما طويلة على السفينة وسط البحر في ظل الحرب التي تشتعل في كل مكان خاصة في المنطقة التي ستبحر فيها تلك السفينة!!.

كانت الرحلة البحرية إلى (مصر) مخيفة بحق.. مرعبة بحق.. استمرت أسابيع طويلة عانى فيها جدي الأمرين من سوء المعاملة والعمل الشاق على السفينة مقابل طعام رديء لا يصلح حتى للحيوانات!!.. أياما طويلة مرت والجميع قلقين خائفين متوترين يقضون وقتهم كله بترقب.. فلا يعرفون من سيكون عدوهم ومن سيكون صديقهم لو عثرت إحدى السفن العسكرية على سفينتهم البدائية.. ولكن العناية الإلهية أنقذتهم جميعا وأنقذت جدي للمرة الثانية!!.. حتى وصلوا إلى (مصر) أخيرا!!.. فكانت الأمور هناك أفضل بكثير بالطبع مما كانت عليه في (هولندا).. فحاجز اللغة الذي عانى منه جدي في (هولندا) لم يكن موجودا وهذه نقطة هامة جدا.. كما أن الأوضاع الأمنية كانت أفضل بكثير مما كانت عليه في أوروبا.. فحصل جدي على وظيفة مؤقتة في إحدى المقاهي على أن يعود إلى (الكويت) عند أول فرصة!!.. ولم تمض أيام قليلة حتى بدأت الأمور تنكشف شيئا فشيئا.. إذ التقى جدي بأحد الأطباء الإنجليز.. وأخبره ببعض الآلام التي يعاني منها في صدره.. فقام الطبيب الإنجليزي بإجراء بعض الفحوصات على جدي قبل أن يصاب

بدهشة هائلة.. بل وبصدمة مروعة!!!!.. وظل يحدق ببلاهة في ظهر جدي قبل أن يصرخ طالبا من أحد الممرضين المصريين أن يترجم لجدي ما سيقوله له!!.. لقد وجد الطبيب الكنز الذي تحدث عنه ذلك الهولندي العجوز!!.. فذلك الهولندي لم يكن سوى رساما شهيرا قام برسم لوحة فنية على ظهر جدي.. لوحة كاملة حملت توقيعه!!!.. لهذا كان جدي يشعر ببعض الآلام في ظهره عندما استيقظ من غيبوبة الحمى!!!.

لقد رسم الفنان الهولندي لوحته كاملة على ظهر جدي بطريقة النقش أو كما يطلق عليها الغربيون (تاتو) (tattoo)!!.. لذا فستظل اللوحة منقوشة للأبد على ظهره!!!.. كان هذا اكتشافا هائلا لا يصدق!!.. وقد تحدث الطبيب البريطاني عن إمكانية إجراء عملية جراحية في المستقبل وبعد انتهاء الحرب العالمية ليتم فيها نزع طبقة الجلد التي تحتوي على اللوحة!!.. ومن ثم يستطيع جدي أن يبيعها.. لأنها ستساوي مبلغا كبيرا خاصة بعد انتهاء الحرب!!!!.. ولو انتظر قليلا إلى ما بعد وفاة ذلك الرسام الشهير فستساوي تلك اللوحة ثروة!!.

بالطبع صعق جدي تماما بهذا الاكتشاف العجيب.. وشعر بدموعه تملأ وجهه تأثرا بما فعله ذلك العجوز الهولندي.. كان واضحا أنه زاهد للدنيا.. خاصة أنه شيخ بلغ به العمر مبلغا فلم يعد يبالي بالمجد والثراء ونشر رسوماته!!.. هناك العديد من المبدعين الذين ماتوا فقراء معدمين كـ(بتهوفن) و(إدجار آلان بو) وغيرهم.. لأنهم ولدوا في أزمانٍ جميلة كان همهم فيها الإبداع فحسب وليس جني المال.

الطريف أن أحدا لم يرَ ظهر جدي عاريا أبدا قبل ذلك الطبيب البريطاني.. بل وحتى جدي نفسه لم يرَ ظهره عبر المرآة مثلا.. فنحن نتحدث عن زمن بعيد لم توجد فيه رفاهية النظافة وأخذ الحمامات الساخنة في أي وقت يحلو للإنسان بالصورة التي نراها اليوم.

استقر جدي بعد ذلك في (مصر) شهورا قليلة أخرى قبل أن يجد أخيرا إحدى السفن المتجهة إلى الخليج!!!.. ليعود إلى (الكويت) في رحلة بحرية كانت أخف وطئا بكثير من الأولى!!.. وعندما عاد.. أخفى كل ما يتعلق بأمر تلك اللوحة.. وعاش حياة طبيعية جدا حتى منتصف الخمسينيات عندما استقرت الأمور وبدأت عجلة الاقتصاد تدور مرة أخرى في أوروبا وفي العالم كله!!.. عندها فقط قرر العودة إلى أوروبا مع تطور وسائل النقل وسهولتها.. فذهب إلى (النمسا) وهو في منتصف الثلاثين من العمر.. وهناك وجد العشرات الذين يتمنون شراء تلك اللوحة!!.. خاصة بعد أن علم بوفاة الرسام الهولندي العجوز.. فقام هناك بإجراء عملية جراحية لانتزاع تلك اللوحة من ظهره بعد أن حصل على كل الضمانات المطلوبة.. ليبيع بعدها اللوحة بحوالي عشرة آلاف دولار!!!.. وهو مبلغ هائل قياسا بتلك الفترة من الزمان!!!.. وكانت هذه بداية حياة جديدة.. حيث عاد جدي الحبيب بعدها إلى (الكويت) وافتتح العديد من المشاريع الناجحة مع النهضة الحضارية والعمرانية التي صاحبت البلد بعد اكتشاف النفط.. ليصبح أحد أكبر رجالات البلد وتزوج بعدها من جدتي رحمها الله.. وأنجبا والدي.

هذه باختصار شديد قصة جدي.. قصة غريبة كما أخبرتكم.. قصة لا أعتقد أن أحدا في (الكويت) عاش مثلها!!.. قصة رجل ما زالت عائلته تنعم بالثراء بفضل مغامرته العجيبة!!.

نهاية العالم.. بصمت

ما زلت أتذكر قصص الخيال العلمي التي قرأتها أيام المراهقة.. خاصة تلك التي تتحدث عن نهاية العالم!!.. فبعضها تخيل حدوث حرب عالمية ثالثة.. والبعض الآخر تخيل حدوث كارثة طبيعية.. أو حتى غزو فضائي من كوكب آخر!!.. ولكن.. لم يكن لأحد على الإطلاق أن يتصور نهاية العالم بهذه الصورة الصامتة التي أعيشها الآن.. إنها حقا قصة غريبة.. قصة لا تصدق!!.

فأنا رائد فضاء تركت كوكب (الأرض) عام 2080م والأمور على ما يرام!!.. كنت في مهمة محدودة تتطلب مني البقاء في الفضاء شهورا قليلة.. ولكنها تساوي ثماني سنوات في توقيت كوكب الأرض!!.. فالزمن في الفضاء الخارجي يختلف عن الزمن على الأرض.. إنها نظرية (آينشتين) الشهيرة كما تعلمون ([5]).

لقد كانت شهورا طويلة وصعبة جدا عانيت فيها وحدة قاتلة في الفضاء اللامتناهي.. لذا كنت في طريقي إلى الأرض وأنا في حالة اشتياق وحنين لا حدود لهما لكل شيء!!.. لأهلي وأصدقائي ولكوكب الأرض بأكمله!!.. وقد كنت أتساءل طوال الوقت إن كان أهلي وأصدقائي قد تغيروا في فترة غيابي.. ماذا؟!.. لا!!.. لم أتزوج بالطبع.. فلا توجد فتاة تستطيع أن تتحمل غياب زوجها عنها طوال تلك السنوات!!.. لماذا أصبحت رائد فضاء؟!.. لا أدري.. ربما هروبا من الواقع.. ربما رغبة مني وحلما راودني منذ أيام الطفولة في السفر إلى الفضاء!!.. وعلى كل حال.. ها أنا الآن أعود بعد غياب ثماني سنوات من عمر الأرض دون أن أتوقع تغييرا كبيرا.. والواقع أنني كنت مخطئا.. مخطئا بشدة!!!.. فقد تغير العالم.. لا.. لم يتغير.. بل انتهى!!.. انتهى بصورة بالغة الغرابة وبطريقة ما زلت أعجز عن تصديقها!!!.

في البداية وأثناء رحلة عودة المكوك الفضائي إلى الأرض.. لم أشعر بأي تغيير.. فقد كنت أهبط ببطء والكرة الأرضية تبدو لي كما تركتها بالطبع!!.. المحيطات والقارات و.. إلخ.

متى تبين لي أن هناك شيئا غريبا ومريبا يحدث؟؟!!.. كان هذا أثناء اقترابي من سطح الأرض حيث قاعدة وكالة أبحاث الفضاء التي تقع بقرب البحر!!!.. ففي البداية لم يبدُ لي أن هناك أحدا في استقبالي!!.. لقد كنت أتوقع استقبالا حافلا من المسؤولين!!!.. بل وتحدثت بنفسي قبل ثلاثة أيام مع القيادة وتبين أن كل شيء على ما يرام وأنهم أعدوا العدة لاستقبالي بالفعل!!!.. توقعت حشودا هائلة من الناس وأجهزة الإعلام!!.. ولكن.. رغم بعد المسافة بيني وبين الأرض أثناء الهبوط.. إلا أنه كان بمقدوري تمييز المكان الذي سأهبط فيه وخلوه تماما من أي حركة!!!.. ومع اقتراب المكوك الفضائي عند نقطة الهبوط.. لاحظت أمرا آخر أشد غرابة!!!.. في البداية ظننت أنه خداع بصري فحسب!!.. ولكن!!.. لا.. لا خداع في الأمر!!.. كان البحر يبدو لي واضحا جميلا ولكن ينقصه أهم عامل!!.. حركة الأمواج!!.. نعم.. أقسم لكم أن الأمواج كانت ثابتة تماما لا تتحرك وكأنها لوحة زيتية!!!.. شعرت بدهشة ما بعدها دهشة!!.. ظللت أحدق في البحر غير مصدق إلى أن هبط المكوك أخيرا على الأرض والتساؤلات تملأ عقلي!!.. قبل أن أعرف أن هناك مصيبة هائلة قد حدثت!!!.

فعندما خرجت من المكوك الفضائي بسلام.. شاهدت عددا قليلا من العاملين في القاعدة!!.. كانوا بأماكن متفرقة.. لكنهم متوقفون تماما عن الحركة وكأنهم تماثيل من الشمع!!!!.. ذهبت إلى أحد العاملين لأتحدث إليه.. لكن.. لا جواب على الإطلاق ولا ردة فعل من أي نوع!!.. تشجعت

قليلا ولمسته بيدي!!.. إنه بشري دون شك.. مثلي ومثلك.. لكنه دون حراك!!.. وكأنه مجمّد!!!.. وقفت أكثر من دقيقة أنظر إليه وأحدق في عينيه اللتين ترمقان أبعادا أخرى.. لكنه لم يتحرك إطلاقا!!.. وكأنه تمثال صنع بطريقة متطورة مجهولة!!.. ذهبت إلى عامل آخر فوجدته بنفس الحال!!.. عندها فقط تذكرت البحر!!!.. جريت مسرعا متجها إلى البحر والذهول وعدم الفهم محفوران على ملامحي.. نعم.. إن الأمواج متوقفة عن الحركة بالفعل!!.. تماما كما رأيتها أثناء الهبوط!!.. وكأنك تشاهد شريط فيديو وقمت بإيقاف الصورة!!.. هذا غريب!!.. ما الذي يحدث هنا؟!.. أخذت إحدى سيارات العاملين وخرجت من القاعدة كالمجنون.. لأفاجأ بأكبر صدمة قد يتوقعها إنسان!!.. لقد كان العالم بأكمله متوقفا عن الحركة!!.. الشوارع مليئة بالمارة.. ولكنهم جميعا دون حراك!!.. كأن كوكب الأرض قد تحول بأكمله إلى متحف شمع!!.. ماذا يحدث هنا!!.. أنا الذي رأيت في هذا العالم كل ما قد يراه إنسان.. لم أرَ أو أعرف شيئا كهذا من قبل!!!.. كنت أسير في السيارة (وحيدا) في هذا العالم!!.. (وحيدا) وسط ملايين البشر!!!.. جملة متناقضة غريبة لكنها تعبر بحق عما يحدث!!.. إنني أرتجف.. أشعر بالخوف.. بالرهبة.. بالقلق.. بالذعر!!.

مر اليوم بأكمله وأنا على هذا الحال!!.. ذهبت إلى أحد الفنادق الشهيرة لأنني لا أعرف مكان سكن عائلتي الجديد.. وبالطبع ما شاهدته في الفندق كان متحفا آخر من الشمع!!.. فأرى موظفي الاستقبال في وضع متجمد يتحدثون مع النزلاء المتجمدين أيضا في مشهد صامت بليغ.

أخذت مفتاح إحدى الغرف.. لأذهب وأرتمي على الفراش وأنام بعمق!!.. إن الذي يقضي ساعات طويلة في الطائرة سيشعر بإرهاق هائل عند وصوله إلى الأرض.. فكيف هو حال من عاد من رحلة فضائية لشهور طويلة؟؟!!!.. لكم أن تتخيلوا!!.. نمت دون أي كوابيس رغم ما حدث!!.. كنت أتمنى أن أستيقظ لأعرف أن كل ما حدث حلم مزعج!!.. ولكن.. أنتم تعرفون وأنا أعرف أنه لا يوجد أي حلم أو أوهام في الأمر.. إن ما أعيشه واقع مخيف!!.

ظللت فترة طويلة أفكر بما سأفعله!!.. فتحت جهاز التلفزيون بلهفة علني أجد شيئا.. ولكن.. الصورة في جميع القنوات متجمدة أيضا.. وجدت أن أفضل الحلول العودة إلى مقر عملي في القاعدة للبحث عن أي إشارات لاسلكية قد يبثها أي ناجين من (مرض التجمد) هذا الذي أصاب العالم!!.. أو ربما سأقوم أنا بإرسال رسالة استغاثة إلى كل مكان في العالم علني أجد من يرد على ندائي!!.. نعم.. إنها فكرة لا بأس بها على الإطلاق.. خرجت من الفندق مسرعا لأقود السيارة إلى مقر عملي وأنا أردد كالمجنون:

-لا شك أن هناك بعض الناجين.. لا شك أن هناك بعض الناجين وإلا سأصاب بالجنون!!.

ما إن وصلت إلى القاعدة حتى بدأت بالفعل بإرسال نداءات استغاثة عبر الميكرفون:

- هل هناك أحد يسمعني؟ !!.. أرجوكم!!.. هل هناك أحد (يتحرك) في هذا العالم؟؟!!.. هل يسمعني أحد؟!..

لحظات قليلة قبل أن أسمع صوتا ملهوفا باكيا!!.. وبإنجليزية جيدة يقول:

-أنا.. أنا أسمعك.. من أنت؟ ؟!.. أرجوك أجبني!!.. هل هناك ناجون غيرك؟!.. هل...

كان يتحدث كالمسعور.. فشعرت بشفقة شديدة نحوه.. لأقول له مقاطعا ومهدئا:

-لا يوجد ناجون غيرنا حتى الآن على حد علمي!!.. ولكن أخبرني.. ناجون من ماذا؟!.. ماذا حدث

بالضبط؟!.. أنا رائد فضاء وقد عدت أمس إلى الوطن وفجعت بما رأيت!!.. هل تملك تفسيرا لما حدث؟!.. كيف تحول كوكب الأرض بأكمله إلى ما أشبه بمتحف من الشمع؟!..

رد بحزن شديد:

-لم يتحولوا إلى شمع أو تماثيل.. إنهم ما زالوا أحياء مثلي ومثلك.. لكن.. لكنهم.. لكنهم...

قلت له بعصبية:

-لكنهم ماذا؟ ؟!.. أجب بالله عليك!!..

قال باكيا:

-لقد توقف الزمن بالنسبة إليهم!!!..

سألته بغباء:

-ماذا تعني؟؟!

رد بأسى:

-إنه خطئي.. أنا المسؤول عن كل ما حدث!!!.. لا أعرف كيف أشرح لك الأمر!!

سكت قليلا وكأنه يبحث عن نقطة يبدأ بها قصته.. ثم:

-لقد.. لقد كان لي جار غريب الأطوار لا يخرج من منزله إلا نادرا.. كان شيخا تجاوز السبعين من العمر!!.. وقد كنت واثقا من أنه يقوم بممارسة نشاط مشبوه.. ربما سحر أو طقوس شيطانية معينة!!.

سكت قليلا ثم أردف بمرارة:

-لقد شد انتباهي أمر هذا الجار.. فقررت أن أراقبه.. أراقب أوقات خروجه ودخوله إلى بيته.. واكتشفت أن خروجه من بيته نادر جدا.. لذا فإن مراقبته بهذه الصورة أمر مستحيل تقريبا!!.. فلم أجد حلا آخر سوى اقتحام شقته أثناء خروجه!!.. كنت مصرا على أن هناك سرا مخيفا يحيط بهذا العجوز وكنت مصرا أيضا على كشف هذا السر!!..

سكت قليلا لأسمع أنفاسه اللاهثة عبر السماعة الموجودة بجواري.. ثم:

-وعندما خرج من بيته في ذلك اليوم!!.. كدت أن أطير فرحا.. فقد كانت فرصة رائعة بالنسبة لي لدخول منزله وكشف السر المحيط به.. وبالفعل!!.. قمت بالقفز إلى سور منزله ثم رحت أبحث عن نافذة مفتوحة.. و.. لم أتصور الأمر بهذه السهولة أبدا!!.. فقد دخلت منزله بعد دقائق قليلة فحسب.. لأفاجأ بعدد هائل من الساعات.. ساعات عديدة من مختلف الأحجام.. بعضها ساعات يد والبعض الآخر من تلك الساعات القديمة التي ترتبط بسلسلة!!.. وبعضها ساعات حائط.. مع أوراق ومذكرات عديدة لا حصر لها.. وبعد قراءة سريعة لتلك الأرقام والحسابات المعقدة التي وجدتها على الأوراق.. عرفت أن الرجل عالم فيزياء!!.. وعرفت حقيقة غريبة.. غريبة جدا لم أتخيل يوما وجودها على أرض الواقع!!.

سكت مرة أخرى ليلتقط أنفاسه.. فقلت له باستعجال:

-أكمل.. أكمل بالله عليك!!..

قال بأسى:

-لقد عرفت أنه قد اخترع ساعة.. ساعة يد غريبة جدا لها خاصية إيقاف الزمن!!.. فبضغطة زر يتوقف الزمن تماما.. لتتوقف كل الموجودات عن الحركة.. بينما من يرتدي الساعة لا يتأثر بذلك!!.. تخيل ما يمكن أن تفعله بساعة كتلك!!.. تستطيع أن تنام كما يحلو لك.. تستطيع أن تملك الوقت كله في هذا العالم لإنجاز أي عمل تريده.. بضغطة زر واحدة توقف الزمن لأي فترة تريدها.. يوم.. يومان.. بضع ساعات.. كيفما يحلو لك.. وبضغطة زر أيضا تستطيع أن تعيد عجلة الزمن للدوران!!.. ولن يشعر أي إنسان بإيقافك للزمن!!.. تخيل هذا!!.. لقد جن جنوني وأنا أقرأ هذا الكلام.. فبحثت كالمجنون عن تلك الساعة!!.. بحثت عنها في كل ركن من المنزل إلى أن وجدت صندوقا صغيرا فاخرا جدا!!.. فتحته بلهفة لأجد ساعة يد غريبة الشكل كبيرة الحجم قياسا بساعات اليد الأخرى وتحوي أزرارا كثيرة.. لم أنتظر.. وضعتها في جيبي وخرجت سريعا.. نعم.. سرقتها إن صح التعبير!!.. وفي البيت رحت أعبث بها بلهفة.. حتى عرفت الزر المناسب!!.. لم أستوعب الأمر في البداية.. لم أستوعب أن الزمن قد توقف عندما ضغطت على الزر المناسب.. انتبهت إلى الأمر بالصدفة عندما ألقيت نظرة عبر نافذة منزلي لأرى بعض الأطفال الذين كانوا يلعبون في الحي وقد تجمدوا جميعا في أماكنهم!!!.. خرجت مسرعا إلى الشوارع الرئيسية في المدينة فوجدت أن الحياة قد توقفت بالكامل!!!.. الشوارع مزدحمة بالبشر.. لكنها ليست مزدحمة إطلاقا بنفس الوقت إن صح التعبير!!.. عندها فقط واتتني تلك الفكرة الشيطانية.. قررت أن أسطو على أكبر محلات الذهب!!.. سرقة الذهب أفضل كثيرا من سرقة المال.. فمن الممكن إذابته أو تحويله إلى سبائك وهذا يبعد عنك الشبهات.. وقد خططت -بعد سرقة كل الذهب الذي أريده -أن أقود سيارتي ساعات طويلة مبتعدا عن مكان السرقة قبل أن أعيد عجلة الزمن إلى الدوران!!.. ستكون الجريمة الكاملة لأن أحدا لن يصدق أن السارق يمتلك ساعة لإيقاف الزمن.. و.. لم أنتظر طويلا.. إذ وضعت خطتي قيد التنفيذ!!.. حيث ذهبت بالفعل إلى أحد محلات الذهب الشهيرة.. ولم يكن الأمر عسيرا إطلاقا.. فأمام العاملين الذين بدوا كالتماثيل، رحت أملأ الأكياس بلهفة و بأكبر كمية أستطيع حملها من الذهب..

زفر بقوة مفرغا كل انفعالاته.. ثم أكمل قائلا:

-ملأت أخيرا أكياس المحل بأكبر كمية أستطيع حملها من الذهب.. وبالطبع لم يكن هذا يكفي.. فقد كنت أريد سرقة أكبر عدد من المحلات لأملأ سيارتي تماما بالذهب.. سأجمع الملايين.. سأصبح أغنى رجل في العالم!!.. كنت في طريقي للخروج من المحل مترنحا بسبب ثقل الأكياس التي أحملها.. غير متوقع أبدا ما سيحدث!!.. حيث ارتطمت يدي اليسرى بجانب باب المحل.. و.. حدثت الكارثة التي كادت أن توقف قلبي من شدة الذعر!!.. فقد انكسرت الساعة!!!!.. انكسرت الساعة الزمنية التي كنت أرتديها بيدي اليسرى عندما ارتطمت بباب المحل!!!.. وسقطت من يدي أكياس الذهب من هول الموقف!!.. ورحت بجنون أحاول الضغط على أزرار الساعة لأعيد عجلة الزمن إلى الدوران!!.. لكن الساعة لم تعمل.. لقد كسرتها.. فأوقفت الزمن في كوكبنا!!.. و..

لم أدعه يكمل.. فقد انفجر بركان الشتائم من فمي.. ورحت أصرخ وأنعته بأقبح الألفاظ وأنا أقول:

-أيها الأحمق.. أيها اللعين.. هل تعلم ما فعلت بحماقتك.. لقد أنهيت الحياة على كوكب الأرض بكل بساطة!!.. دمرت حضارة الإنسانية كلها بفضل غبائك وطمعك.. أنهيت العالم كله بسبب جنونك.. أي لعنة حلت علينا بسببك!!.. أيها....

قاطعني وهو يبكي:

-لقد حدث كل شيء قبل يومين.. ومنذ ذلك الحين أنا وحيد تماما في هذا العالم.. إنني في (فرنسا) وأنت أول إنسان أحادثه منذ تلك الحادثة!!.. لا أعتقد أنه يوجد غيرنا في هذا العالم.. لا أعرف ما أقول لك.. لن أطلب منك المغفرة لأن ما فعلته أمرا لا يغتفر.. ربما حتى قتلي لن يكفر عن الذنب الذي ارتكبته!!.. و....

لم أستمع إلى باقي كلامه!!.. فقد شعرت فجأة بانكسار.. انكسار هائل!!!.. ويأس لا حدود له.. شعرت برغبة عارمة في إنهاء حياتي.. رغبة عارمة بالموت.. فلا يوجد أي دافع للحياة بعد نهاية العالم بهذه الصورة التي لم يتوقعها أحد.. بعد نهاية العالم.. بصمت!!!.

ليلة مع قاتل

عبقري!!.. هذه الكلمة التي يقولها كل إنسان ألتقي به.. لا أعرف في الواقع إن كنت عبقريا أم لا!!.. لكنني أعرف جيدا أنني إنسان مكافح!!.. فقد ولدت يتيم الأب.. أما والدتي فماتت بالسرطان وأنا في السابعة من العمر!!.. فنشأت عند خالتي التي تولت رعايتي!!.. ولم تكن حياتي عندها رائعة!!.. بل -وعلى العكس تماما- كانت شنيعة!!!.. فأولاد خالتي كانوا يعاملونني بقسوة لا حدود لها وكأنني مخلوق فضائي بشع!!!.. ومع مرور الأيام عرفت أن صديقي الوحيد في هذا العالم سيكون شهادتي الدراسية.. لذا تحديت الصعاب ومررت بأيامٍ سوداء كي أحصل على بكالوريوس في الهندسة الكيميائية.. لتتيسر الأمور بعد ذلك إلى حد كبير وتستقر حياتي.. مما ساعدني في الحصول على شهادة الماجستير ثم الدكتوراه في الهندسة الكيميائية.. ولأن طموحي لا حد له على الإطلاق.. فقد أصبحت رجل أعمال مرموقا وناجحا إلى درجة أثارت حسد الكثيرين!!!.. حتى أصبح لدي قاعدة لا بأس بها من الأعداء بسبب حصولي على معظم الصفقات التجارية والمناقصات.. وكان هذا يثير غيظ وجنون السيد (فواز) وهو رجل أعمال شهير جدا ومن أسرة معروفة.. فقد كان منافسا خاسرا بشكل دائم!!!.. وكثيرا ما حاول استخدام نفوذ عائلته للحصول على المناقصات والفوز بها وإبعادي عنها.. لكنني كنت صاحب الكلمة الأخيرة والمنتصر دائما!!.

يقولون إنني أمتلك عقلية نادرة.. والواقع أنني بدأت أؤمن بهذا فعليا بعد ما حدث في تلك الليلة بالذات.. عندما زارني شخص مجهول.. لـ.. لقتلي!!!.. نعم.. كنت في تلك الليلة أعمل حتى ساعة متأخرة في مكتبي الذي يقع في مجمع (الراية) الشهير.. حيث جلست لمراجعة بعض الملفات والأوراق الهامة!!.. وبالطبع كنت قد صرفت جميع الموظفين من المكتب.. قبل أن أنتبه إلى من يفتح باب مكتبي بهدوء دون استئذان.

كان رجلا بالغ الاعتداد بنفسه يرتدي بذلة فاخرة جدا.. ابتسم بهدوء دون أن ينطق بحرف!!!.. بادلته الابتسامة وإن لم أخف استغرابي من هذه الزيارة العجيبة في تلك الساعة المتأخرة من الليل!!.. لم يقل الرجل شيئا.. بل جلس تجاهي على الكرسي وصب لنفسه كوبا من الماء الموجود على مكتبي.. ثم رشف منه قليلا.. قبل أن يخفق قلبي بقوة وهلع عندما أخرج ذلك الزائر الغامض مسدسا مخيف المظهر وصوبه ناحيتي!!!.. تراجعت برعب هائل وأنا ألوح له بيدي كي يتوقف عما يريد فعله!!.. فقال لي بهدوء شديد وابتسامة ساخرة بغيضة:

-مرحبا.. أنا هنا لقتلك.. أرسلني إليك السيد (فواز) لتصفية حسابه معك!!.

سألته بذعر:

-ماذا تريد؟ ؟!.. لماذا تريد قتلي؟ ؟!..

رد بحزم مخيف وهو ينظر إلى عيني مباشرة:

-لقد أخبرتك.. أرسلني السيد (فواز) لقتلك.. وقد قبضت مبلغا هائلا نظير ذلك..

قاتل محترف؟ !!.. في (الكويت)؟!.. لم أسمع بهذا من قبل!!.. طرحت تلك التساؤلات جانبا لأقول له بلهفة وعقلي يعمل بسرعة رهيبة محاولا إيجاد مخرج من هذا المأزق:

-أيا كان ما دفعه لك السيد (فواز) فسأدفع أنا الضعف..

مط شفتيه وهو يقول:

-إنني محترف.. أتغاضى أجرا محددا وأحفظ كلمتي.. هه.. هل لديك كلمة أخيرة تود قولها قبل أن أقتلك؟؟!.

صرخت برعب:

-مهلا.. مهلا.. أرجوك انتظر قليلا..

نهضت من مكتبي متجها إليه ورافعا يدي إلى الأعلى حتى يتأكد من أنني لا أنوي القيام بأي تصرف مفاجئ!!.. ثم قلت له برجاء:

-سيدي.. لدي في هذه الخزانة الموجودة في مكتبي قرابة المائة ألف دينار.. سأدعك تأخذها الآن على أن تتركني.. سأذهب إلى الخزانة.. أرجوك لا تطلق النار.. ولا تخش شيئا.. فلست أملك أي أسلحة هنا.

نظر إلي دون أن ينطق بحرف.. بل اكتفى بابتسامته الساخرة المتشفية ومسدسه ما زال موجها إلي!!.. يظهر أنه اعتاد على هذا الكلام من الأشخاص الذين قتلهم في السابق!!!..

ذهبت إلى الخزانة وأخرجت منها مظروفا كبير الحجم يحوي مائة ألف دينار كنت سآخذها إلى البنك غدا.. وأغلقت بعدها باب الخزانة.. قبل أن أضع النقود على مكتبي.. و.. أبتسم بدوري ابتسامة ساخرة متشفية!!!!.

أثارت ابتسامتي استغراب القاتل!!!.. فسألني بثبات وثقة:

-لماذا تبتسم أيها الأحمق؟ !!..

قلت له بابتسامة ساخرة وشجاعة لا أعرف كيف واتتني:

-أعتقد أنك أنت من يجب أن نطلق عليه لقب الأحمق يا عزيزي!!.. الكوب الذي شربت منه الماء قبل قليل!!.. هل نسيته؟!.. لقد أخذته دون أن تنتبه ووضعته في الخزينة عندما ذهبت لأخرج لك المال منها.. نعم أيها الأحمق.. لقد وضعت الكوب في الخزينة وأغلقتها!!.

سكت قليلا لأقول له بحزم وسط نظراته المتسائلة:

- والآن.. ستقتلني؟؟؟!.. افعل هذا إن أردت.. وأنا على ثقة أن رجال الشرطة سيفتحون تلك الخزينة أثناء التحقيق في مقتلي وسيجدون فيها كوبا من الماء!!!.. لا شك أن هذا سيثير استغرابهم وتساؤلاتهم!!.

سكت مرة أخرى وأنا أنظر إلى وجهه الذي خلا ولأول مرة من تلك الابتسامة البغيضة.. ثم أكملت بنبرة ساخرة:

- ولا شك أنهم سيرفعون البصمات الموجودة على الكوب وسيجرونك بعدها جرا للتحقيق.. وأعتقد أن مسألة إدانتك لن تتطلب وقتا طويلا بعد هذا.

لأول مرة.. خفض الرجل مسدسه المصوب ناحيتي.. وسيطر القلق على ملامحه وأصبح بالفعل كالفأر الواقع في مصيدة!!.. قبل أن يقول في محاولة يائسة:

-سأقتلك وأفتح الخزينة لآخذ الكوب!!..

رددت عليه بضحكة طويلة ساخرة:

-أعرف أنك لم تلمس شيئا منذ دخولك هنا سوى ذلك الكوب مع الإبريق.. وأنا على ثقة أنك كنت تنوي مسح بصماتك الموجودة عليهم.. لكنك الآن في ورطة!!.. أنت تعرف هذا.. أما أن تفتح الخزينة بنفسك كما تقول فهذا أمر مستحيل تماما.. فهي من طراز حديث ولا يمكن أن تفتحها إلا بالأرقام السرية.. وهناك نظام الأمن الخاص المرتبط بها.. فلو حاولت كسرها أو فتحها عنوة -وإن كان هذا صعبا للغاية- فسيتم تشغيل نظام أمني يجلب الشرطة إلى هنا في غضون دقائق.. لن تستطيع حتى أن تغادر المبنى.

مططت شفتي ثم أكملت سخريتي قائلا:

-بإمكانك المحاولة لو أردت..

ضغط القاتل على أسنانه بشدة وهو يقول بحنق شديد:

-أيها اللعين.. أي عقل لديك؟!..

مططت شفتي مرة أخرى دون أن أقول شيئا.. ثم سألني برجاء:

-ماذا تريدني أن أفعل كي أحصل على ذلك الكوب؟؟!

سكت قليلا وأنا أنظر إليه دون أن أرد.. ثم أخذت نفسا عميقا قبل أن أقول وعلامات التفكير على وجهي:

-أستطيع طردك من مكتبي.. وأعرف أنك لن تقتلني طالما يوجد ذلك الكوب الذي يحوي بصماتك في خزانتي.. ولكن....

أغلقت عيني بقوة وأنا أفكر وأقول:

-السيد (فواز) لن يسكت.. سيفعل شيئا آخر لقتلي.. لن أكون بمأمن منه أبدا.. ربما سيقوم بالاستعانة بشخص آخر!!.. إلا إذا.. إلا إذا أخرسنا السيد (فواز) هذا إلى الأبد!!.

نظرت إلى عينيه المتسائلتين وقلت له مباشرة:

-ما رأيك بقتل السيد (فواز)؟!..

صعق القاتل من هذا السؤال.. وانتفض بقوة قبل أن يقول بذهول:

-أنت.. أنت شيطان حقيقي.. أنا لم أقابل أحدا مثلك من قبل.. إنك....

قاطعته قائلا دون الاهتمام لكلامه:

-إذا لم تقتله.. سأذهب إلى الشرطة وأخبرهم بكل شيء.. أعرف أنني لا أملك الدليل.. ولكن رجل مثلك من المؤكد أن تحوم حوله بعض الشبهات.. ومن المؤكد أيضا أن وجود بصماتك على ذلك الكوب سيثير الشك!!.. صدقني.. ستسقط إن عاجلا أم آجلا.. والمنفذ الوحيد لك قتل السيد (فواز)!!.. إنك بهذا تنقذ نفسك قبل أن تنقذني.. فلو قتلته.. لن أستطيع تسليمك للشرطة.. لأنك ستخبرهم أنك قتلت السيد (فواز) بناء على أوامري.. أعلم أنهم لن يصدقوك.. لكنك بهذه الطريقة ستثير حولي أقاويل ستهز ثقة كل من يتعامل معي في الأوساط التجارية.. خاصة أن السيد (فواز) منافسي الأول!!.

سكت طويلا.. قبل أن ينظر إلي أخيرا ويهز رأسه موافقا بانكسار!!.. ليخرج من مكتبي ذليلا للقيام بمهمته التي أوكلته بها!!.

يقولون إنني عبقري.. نعم.. لقد بدأت أصدق هذا.. فمن عاش حياتي لابد أن يكون عبقريا كي يصل إلى ما وصلت إليه.. نحن نعيش في غابة مع كل أسف.. لا بد أن نكون حذرين دائما ونجيد التصرف في الظروف الصعبة.. خاصة إذا ما واجهنا ذئابا بشرية كالسيد (فواز) وقاتله المأجور الذي أصبح الآن تحت رحمتي!!.

لعبة العمر

كان موضوع اختفاء زوجتي منذ أسبوع حديث الساعة في محيط عائلتها وعائلتي!!.. وكان الجميع يبحثون عنها بقلق شديد دون جدوى!!.. أما الشرطة فقد عجزت تماما عن إيجاد أي أثر لها.. لا.. لم تهرب زوجتي من المنزل كما قد يظن البعض.. ولم تتركني.. فنحن متحابان والجميع يحسدنا على زواجنا الناجح.. هذا أمر معروف في محيط العائلة والأصدقاء ولا شك فيه أبدا!!!.. فأين ذهبت زوجتي؟ !!.. هل اختطفها أحدهم؟ !!.. لا أعلم!!.. آخر مرة رأيتها فيها كانت منذ أسبوع.. قبل أن تخرج ذاهبة إلى مجمع (الكوت) التجاري ولم تعد بعد ذلك أبدا!!.. هاتفها النقال مغلق ولا يوجد أدنى أثر لسيارتها!!.

نسيت أن أخبركم أنني طبيب شرعي أعمل في وزارة الداخلية وغالبا ما أكون أول من يستقبل الجثث المرتبطة بجريمة ما.. أو حتى الجثث المشوهة لفحصها ومعرفة هويتها ومن ثم مساعدة رجال الشرطة بطبيعة الحال.. و.. نعم!!.. هو ما تتوقعونه تماما!!!.. فقد وصلت إلى المشرحة في ذلك اليوم جثة محترقة متفحمة تماما طلبوا مني فحصها!!.. كانت الجثة لأنثى في بداية العشرين من العمر.. ولم أحتج إلى الكثير من الوقت لأعرف أنها جثة زوجتي!!.. فقد كانت الجثة ترتدي خاتم زواجنا.. إنها زوجتي!!.. لا شك في ذلك.

حدث ما هو متوقع بالطبع.. وقوع على الأرض.. انهيار وبكاء!!.. زملاء العمل يحيطون بي محاولين تهدئتي ومسؤولي في العمل يلعب دورا أبويا محاولا إبعادي عن الجثة!!.. ظللت أكثر من ساعتين منهارا تماما واقعا على الأرض أنظر إلى أبعاد أخرى أجهلها أنا نفسي!!.. في حين تتلقفني أيادي زملائي وجميعهم يحاولون تهدئتي من تلك الصدمة!!.

لقد عرفت فيما بعد أنه قد تم العثور على سيارة زوجتي في الصحراء من قبل رجال الشرطة بالقرب من منطقة (ميناء عبدالله) !!.. وكانت السيارة محترقة تماما وبداخلها جثة زوجتي المحترقة هي الأخرى بالطبع!!.. لم يكن أحد يعرف سبب وجود سيارتها في ذلك المكان.. ذكر البعض أن العملية قد تكون سرقة ثم تطورت لتصل إلى القتل لأسباب مجهولة.. فحقيبة زوجتي كانت مفقودة مما يرجح عملية السرقة.. لماذا قام الفاعل بقتل زوجتي وحرق الجثة؟ !!.. لماذا لم يسرق السيارة أيضا؟؟!!.. لا أعرف!!!.. كانت القضية مبهمة وغير واضحة.. ولم يجد رجال الشرطة أي خيط قد يقودهم إلى الجاني مما تسبب لي بأضرار نفسية بالغة!!.. فانعزلت تماما عن العالم!!.. وأطلقت لحيتي.. وأهملت نفسي أسابيع طويلة!!.

كان الأهل والأصدقاء يحيطون بي طوال الوقت يحاولون إقناعي بأن أبدأ حياتي من جديد وأن المستقبل ما زال أمامي.. خاصة أنني شاب في مقتبل العمر وحديث الزواج من زوجتي رحمها الله.. فما زلت في بداية الثلاثين من العمر وهناك الكثير من الأمور التي أستطيع صنعها في حياتي و.. إلخ من هذا الكلام الذي يقال لكل من فقد شخصا عزيزا.

مع مرور الأيام بدأت بالفعل بالاقتناع بكلام الأهل!!.. خاصة بعد مرور 4 شهور تقريبا على مقتل زوجتي.. و.. بدأت عجلة الحياة تدور شيئا فشيئا!!.. فحلقت ذقني وبدأت أهتم في عملي مرة أخرى وأهتم بنفسي.. إلى أن جاء أخي ذات يوم ليزورني في مقر عملي ويخبرني بأمر لم يكن في الحسبان على الإطلاق:

-هل تذكر قبل سنة تقريبا عندما ذهبت معك لشراء تأمين على حياتك وحياة زوجتك؟!.. لماذا لا تستفيد من قيمة هذا التأمين؟ ؟!.. لقد أمنت على حياة زوجتك بأكثر من نصف مليون دينار تقريبا!!.. إنه مبلغ هائل سيغير حياتك تماما فلم لا تستغله؟!..

نظرت إلى أخي بانبهار وقد نسيت أمر ذلك التأمين على الإطلاق!!.. وشيئا فشيئا بدأت أتذكر.. فقبل حوالي سنة تقريبا.. ذهبت معه لشراء تأمين على حياتي وحياة زوجتي بالفعل!!.. حقا أنني أستطيع أن أبدأ حياتي من جديد مع هذا المبلغ الهائل!!..

قلت لأخي بهدوء شديد وأنا أفكر بعمق:

-إنك.. إنك على حق!!.. يجب أن أستفيد من قيمة التأمين على حياة زوجتي..

ابتسم مشجعا وطلب مني عدم التأخير أكثر من ذلك!!.. بالفعل.. لا يوجد سبب للتأخير أكثر من ذلك!!.. ففي اليوم التالي مباشرة، ذهبت إلى شركة التأمين وقمت بتعبئة جبل من الأوراق والمستندات.. وقدمت للشركة تقرير رجال الشرطة وتقرير الطب الجنائي وعقد الزواج وأوراقا كثيرة أخرى لم أتمكن من جمعها وتقديمها لهم لإنهاء الإجراءات إلا بعد أسبوع تقريبا!!.. وهكذا أصبح الشيك جاهزا بعدها بأسابيع قليلة.. حوالي نصف مليون دينار.. مبلغ هائل وفرصة قد لا تتكرر لأبدأ حياتي من جديدا!!.

ذهبت بعدها إلى أخي لأخبره بقراري.. نعم.. فقد قررت الهجرة إلى إحدى الدول الأوروبية والبحث عن عالم أفضل وحياة جديدة.. وأمر كهذا ليس صعبا طالما توفرت المادة.. فبعد شهور قليلة كنت جاهزا للسفر والرحيل.. ولم أنس بالطبع أن أذهب إلى تلك الشقة الصغيرة في منطقة (الجابرية) لتأتي معي زوجتي الحبيبة!!!!.. لا يمكن أن أتركها أبدا!!!!.. مهلا.. لا خطأ هناك.. فهذه هي اللعبة.. هذه هي الخطة العبقرية التي رسمتها مع زوجتي منذ أيام الخطوبة!!!.

لقد كنا نبحث معا عن مستقبل أفضل.. خاصة أنها من فئة غير محددي الجنسية في (الكويت).. فكانت تعرف جيدا أي مستقبل مظلم ينتظرها في هذا البلد.. أما أنا فقد حصلت على بكالوريوس في الطب واخترت الطب الشرعي على وجه الخصوص.. ثم ماذا؟؟!!.. لا تقدير ولا حوافز من أي نوع.. ولا حتى مستقبل مضمون.. ومسلسل هجرة الأطباء الكويتيين أصبح أمرا معتادا تتحدث عنه الصحف دائما دون أن يحرك أحد المسؤولين ساكنا ([6])!!.. فكرنا كثيرا بكيفية الحصول على مبلغ هائل من المال في فترة قصيرة ومن ثم الهجرة..

والثراء السريع كما تعلمون مستحيل الحدوث دون سرقة.. أو.. النصب على إحدى شركات التأمين!!!!.. وكان الخيار الثاني الأسهل والأفضل بالطبع!!.. فاشتريت تأمينا على حياتي وحياة زوجتي.. وجلست بعدها مع زوجتي نفكر بكيفية الاستفادة من هذا التأمين دون أن يموت أحدنا!!.. وجاء الحل على طبق من ذهب بعد شهور قليلة من شرائنا للتأمين.. وذلك عندما وصلت إلى المشرحة جثة لفتاة في عمر زوجتي توفيت إثر نوبة قلبية مفاجئة.. عندها فقط واتتني تلك الفكرة العبقرية التي قمت بوضعها قيد التنفيذ بعد أن راقت لزوجتي ووجدت أنها خطة متكاملة بالفعل!!..

فقد توارت زوجتي عن الأنظار في شقة استأجرتها خصيصا لها!!.. وقمت بعدها بإبلاغ الشرطة بخوف وقلق مصطنع عن اختفاء زوجتي.. وذهبت إلى مقبرة (الصليبخات) لاستخراج جثة تلك الفتاة التي أخبرتكم عنها بعد يوم فقط من دفنها.. ثم وضعتها في سيارة زوجتي وذهبت بها إلى الصحراء في مكان منعزل تماما.. وسكبت جالونات من البنزين على السيارة حتى تحترق مع الجثة

لأخفي هويتها تماما.. بالطبع لم أنس أبدا أن أضع خاتم زواجنا في إصبع تلك الفتاة!!.. لأقوم بعدها بتمثيل مسرحية رائعة أقنعت فيها الجميع بأنني إنسان محطم يائس بعد مصرع زوجتي!!.. وحدث ما توقعته بأن يأتي أخي ويذكرني بموضوع التأمين!!. بكل تأكيد كنت سأفعلها وحدي لو طال الانتظار.. لكني فضلت أن يأتي أخي بنفسه ويذكرني بأمر التأمين لأبعد كل الشكوك عني!!.. أما زوجتي.. فقد استخرجت لها جواز سفر من (بوليفيا) باسم مختلف!!.. وهناك العديد من فئة البدون في (الكويت) يمتلكون جوازات سفر من هذه الدولة ([7]).. لذا فإننا لم نلق أي صعوبات في الهجرة.. فهاجرنا أخيرا متجهين إلى (أوروبا) حيث بدأنا هناك حياة جديدة تبشر بالخير..

ألم أقل لكم إنها لعبة؟!.. لعبة نجحت فيها بامتياز.. لعبة العمر.

مستقبل.. بلا مستقبل

آلة الزمن!!.. مؤكد أنكم سمعتم أو قرأتم عنها.. بل وشاهدتم عشرات الأفلام التي تتحدث عنها وعن إمكانية السفر إلى المستقبل.. أو الماضي!!.. حسنا.. لقد كان هذا حلم حياتي.. أن أسافر إلى الماضي البعيد حيث التاريخ المجهول.. أو المستقبل البعيد حيث مصير الإنسان المجهول أيضا!!.. ومن أجل تحقيق هذا الحلم.. وهبت حياتي بأكملها لاختراع تلك الآلة.. آلة الزمن!!.. فمنذ سن الرابعة عشرة وأنا مفتون بتلك الآلة.. أحلم أن أمتلكها لأنتقل إلى أي زمن أريده.. لأعيش المستقبل والماضي وأعرف كل أسرارهما!!.. ولحسن الحظ أنني وجدت كل ما يساعدني على تحقيق هذا الحلم!!.. فوالداي ثريان جدا.. وأنا ولدهما الوحيد.. وعند وفاتهما في حادث سيارة مؤسف.. قمت ببيع كل ممتلكاتهما ووضعت المبلغ وديعة في البنك.. مبلغ هائل يكفيني مدى الحياة.. خاصة أنني لا أحب السفر أو شراء السيارات الفارهة.. جميع هذه الكماليات لا تستهويني على الإطلاق.. إنها آلة الزمن فحسب.. هي كل ما يشغل عقلي وحياتي!!.. فمنذ سن الرابعة عشرة وأنا أجتهد في دراستي وأبذل كل ما بوسعي في المواد العلمية تحديدا حتى أتمكن يوما من دراسة الفيزياء بالصورة التي تفيد في اختراع آلة الزمن!!.. أعلم أن المهمة شبه مستحيلة.. أعلم أن أجيالا عاشت وماتت تحاول اختراع تلك الآلة وفشلت!!.. أعلم أنني قد أركض وراء سراب طوال العمر!!.. ولكن هذا لم يثبط من عزيمتي على الإطلاق!!.. بل زادني إصرارا!!.

درست الفيزياء وسافرت إلى (روسيا) و(الولايات المتحدة الأمريكية) وقضيت في هاتين الدولتين شهورا طويلة.. ثم اشتريت العشرات من كتب الفيزياء للمزيد من الاطلاع.. وأجريت الكثير من البحوث!!.

سنوات طويلة من العمل المتواصل دون راحة تقريبا.. انقطاع تام عن المجتمع.. وفي ذهني أمر واحد فقط.. آلة الزمن!!.. وبالطبع لم أكن لأكتب قصتي تلك لو لم أتوصل إلى صنع الآلة فعليا!!.. متى توصلت إلى صنع آلة الزمن؟؟!!.. توصلت إليها وأنا في الخمسين من عمري تقريبا.. وتحديدا في عام 1966!!.. أي أنني ظللت حوالي أربعين عاما أجري التجارب وأحاول التوصل إلى السبيل لصنع الآلة!!.. لا شك أن نبوغي وعشقي لعلم الفيزياء ساعداني على ذلك..

وقد عرفت من خلال دراستي وأبحاثي حقيقة شبه مؤكدة.. وهي أنني لو سافرت إلى الماضي.. فسأسافر إليه كمشاهد للأحداث!!.. وليس كمشارك فيها!!.. سأكون كمن يشاهد الأحداث من خلال شاشة عملاقة!!.. أي أنني لن أتمكن من تغيير أي حدث في الماضي!!.. ماذا أريد أن أغير؟!.. لا أعلم.. ولكن معرفتي بعجزي عن تغيير أي حدث في الماضي قد قتل لدي كل حماس للسفر إليه.. دعكم من أن السفر إلى الماضي سيتطلب طاقة هائلة تمثل أضعاف الطاقة التي سأحتاجها للسفر إلى المستقبل!!.. والأسباب علمية فيزيائية يصعب ويطول شرحها كثيرا!!.. ولكن فلنقل أنك ستحتاج إلى طاقة أقل للسباحة مع التيار (السفر إلى المستقبل).. بينما ستحتاج إلى طاقة أكبر للسباحة عكس التيار (السفر إلى الماضي).

لذا.. لم أجد بدا من اختيار السفر للمستقبل لمعرفة ما قد يحدث بعد مئات أو ربما آلاف السنين من الآن!!.. كنت أواجه مشكلة واحدة.. مشكلة لا حل لها.. فلن أستطيع القيام سوى برحلة واحدة فقط والعودة منها.. لماذا؟!.. لأنني لا أمتلك الطاقة الكافية للقيام بعدة رحلات زمنية!!.. فآلة الزمن التي صنعتها تحتاج إلى طاقة هائلة.. ولم أجد تلك الطاقة إلا من خلال أشعة

الشمس!!.. فأشعة الشمس أعظم مصدر للطاقة في العالم!!.. ولو أحرقنا كل النفط والخشب والفحم الموجود على كوكب الأرض فإن الطاقة الناتجة لن تساوي سوى الطاقة الناتجة من أشعة الشمس لمدة يومين فقط ([8]) ورغم ذلك.. لن تكفي هذه الطاقة إلا لرحلة واحدة والعودة منها!!!.

لقد صنعت جهازا خاصا يستغل الطاقة الشمسية ويختزنها طوال 15 عاما حتى أستغلها في تشغيل الآلة!!.. نعم.. لقد كانت الآلة تحتاج إلى طاقة هائلة.. كيف تبدو آلة الزمن؟ !!.. من الطريف أنها تبدو كتلك التي تشاهدونها في الأفلام.. وخاصة فيلم (آلة الزمن) (The Time Machine) ([9]) الشهير.. أي أنها أشبه بكرسي الحلاقة!!.. وقد تطلب صنعها عاما كاملا بعد سنوات طويلة من المعادلات الحسابية.. والأخطاء والتعديلات و.. إلخ.

وفي الليلة الموعودة.. ليلة السفر إلى المستقبل.. ظللت ساعات طويلة أفكر فيما قد يحدث!!.. أفكر بالمغامرة التي سأقوم بها والتي سأكون أول من يخوضها في تاريخ البشرية على حد علمي.. ولكن.. كنت أشعر ببعض الخوف!!.. فالمشكلة أنني لم أقم بتجربة الآلة.. لم أقم بإرسال جماد مثلا إلى المستقبل للتأكد من عمل الآلة بشكل سليم على الأقل لأن هذا سيحتاج إلى طاقة هائلة كما تعلمون!!.. سأكون أنا فأر التجارب وليس باليد حيلة!!.. عموما.. جميع حساباتي وأرقامي تؤكد أنني سأصل إلى الزمن الذي أرغب بزيارته سليما ولن أواجه أي مشاكل.. ولكن.. ماذا سيكون حال العالم في المستقبل؟!.. هل سأرى عالما مثاليا؟ ؟!.. هل سأرى عالما مدمرا تماما كما نشاهد في أفلام الخيال العلمي؟!.. لن يجيب على هذه التساؤلات سواي عندما أنتقل إلى المستقبل!!!.

ساعات طويلة من التفكير حسمت فيها أمري.. فلا يمكن أن أتراجع الآن بعد أن أفنيت عمري كله في البحث العلمي والتجارب!!.. أخذت حماما ساخنا وحلقت ذقني.. وكأنني على موعد مع فتاة الأحلام!!.. ثم قمت بارتداء ثياب رياضية خفيفة.. وأخذت معي معطفا ثقيلا.. فأنا لا أعرف العوامل الجوية التي سأواجهها.. ولن أقوم -بالتأكيد- بإفساد هذه التجربة بسبب إحساسي بالبرد مثلا!!.

والآن.. ها أنا جالس على الكرسي الخاص بآلة الزمن.. قلبي يخفق بقوة.. يدي ترتجف وأنا أضغط على الأزرار الخاصة بالتشغيل!!.. صوت آلي غريب.. قبل أن تبدأ الآلة بالعمل أخيرا!!!!.. وبدأ العداد الزمني يتغير أمامي بسرعة رهيبة!!.. عام 1980.. 2020.. عام 2060.. عداد السنوات يتغير والموجودات حولي تتغير بسرعة.. حتى عجزت تماما عن معرفة ما يحدث خارج محيط الآلة التي تحيطني بهالة زرقاء تبعدني تماما عن المؤثرات الخارجية!!.. وصلت إلى عام 2300!!.. هل أوقف الآلة الآن؟؟!!.. لا.. هذه فترة بسيطة نسبيا.. أريد المستقبل البعيد.. عام 2650.. مضى على وجودي في الآلة قرابة الخمس دقائق.. عام 3700!!!.. الفضول يقتلني.. كيف هو حال العالم الآن؟؟!!!.. إن كانت هي زيارة واحدة فقط للمستقبل فيجب عدم الاستعجال.. عام 69(ميلادية!!! أكثر من خمسة آلاف عام على زمني الفعلي!!!!.. عام 22 ألف ميلادية!!!.. حوالي عشرين ألف عام مرت على الزمن الذي جئت منه.. كيف سيكون حال العالم؟ ؟!.. كيف يا ترى؟ !!.. عام 35 ألف ميلادية!!!!.. لا أعرف لماذا قررت التوقف عند هذا الرقم تحديدا!!!.. ثلاثة وثلاثون ألف عام تقريبا مرت على الزمن الذي جئت منه!!.. يا لها من فترة زمنية هائلة لا تصدق!!.. الأمر يستحق التوقف لمعرفة حال العالم في هذا الزمن!!.

أمسكت بالمسدس بيدي اليمنى بقوة!!.. نعم.. لقد أخذت معي مسدسا على سبيل الاحتياط آملا ألا تتوقف بي الآلة بين مجرمين مثلا أو وسط معركة!!.. ارتجفت لهول الفكرة.. فعندها يجب تشغيل الآلة بسرعة حتى أعود إلى زمني لأنقذ الآلة وأنقذ نفسي من الموت!!!.. من المخيف حقا أن تجهل تماما مصيرك وما سيحدث لك بعد لحظات قليلة من الآن!!.. ضغطت على أزرار التوقف!!.. وبدأت الآلة تتوقف شيئا فشيئا.. الموجودات تبدأ بالاتضاح!!.. ما هذا؟؟!!.. إنني وسط مكان رائع خلاب!!!.. إنها.. إنها حديقة رائعة الجمال.. أزهار غريبة من كل نوع.. أعشاب مرتبة وكأن أحدا لم يمشِ عليها من قبل!!.. تركت آلة الزمن.. وبدأت بتفقد المكان.. يا لها من مدينة هائلة رائعة نظيفة تماما.. كل شيء فيها يبشر بالخير.. لقد أبدع كتاب الخيال العلمي في زمننا بحق.. بل وأبدع مخرجو السينما.. فكل ما تنبؤوا بحدوثه أراه فعليا أمامي!!.. مبانٍ اسطوانية الشكل.. آلاف السيارات المستقبلية غريبة الشكل متوقفة في كل مكان بترتيب ونظام.. يبدو لي أن البشرية في المستقبل البعيد قد قضت تماما على التلوث.. لا تبدو أي آثار للتلوث على الإطلاق!!.. إنه أمر رائع.. ولكن.. مهلا!!!.. هناك أمر مريب.. لقد أبهرني المستقبل.. أبهرني إلى درجة أنني نسيت أهم عامل فيه على الإطلاق.. البشر!!!.. أين ذهب البشر؟؟!!.. لا يوجد أدنى أثر لأي منهم!!!.. مشيت في شوارع المدينة الفضية!!.. نعم.. شوارع فضية مصنوعة من مادة غريبة.. لكني لم أكترث لهذا كثيرا.. أريد العثور على بشر.. أين البشر؟؟!!.. أين ذهبوا؟؟.. لا يوجد أي أثر لحرب طاحنة أو لصراعات من أي نوع ولا يوجد ما يوحي بحدوث كارثة من أي نوع.. فلا يمكن افتراض أن الإنسان قد اختفى هكذا دون سبب.

دخلت المتاجر العملاقة الموجودة في المدينة.. فلم أجد فيها شيئا أعرفه!!.. ثيابا غريبة وآلات دقيقة جدا وكماليات غير مفهومة.. أخذت بعضها على سبيل الذكرى -وربما لدراستها -إذا عدت لزمني سالما!!.

ظللت في المستقبل أكثر من أربعة أيام دون العثور على أي إنسان!!!!.. لأقرر بعدها العودة إلى زمني.. إلى عام 1966.. مع تلك الأجهزة الدقيقة التي أخذتها من ذلك المتجر.. فعلت كل هذا وعلامات الدهشة على وجهي طوال الوقت!!.. لقد وضعت في الحسبان جميع الاحتمالات التي قد أجدها في المستقبل إلا هذا!!.. أن أجد كل شيء نظيفا جميلا مشرقا ولكن من دون بشر!!.. ولا أنسى أن أذكر أنني حاولت العثور على كتب أو أي مصادر أخرى للمعلومات فلم أجد شيئا على الإطلاق.. و.. ها أنا أعود إلى آلة الزمن محملا بتلك الأجهزة الدقيقة بعد أربعة أيام قضيتها في المستقبل.. وكأنني عائد من إجازة!!!.. أضغط أزرار الآلة مرة أخرى.. وأضبط الزمن على عام 196.. على زمني!!.. ستستقر بي الآلة في شقتي بطبيعة الحال!!.. أضغط الأزرار وأنا في حالة ذهول ودهشة ما بعدها دهشة.. ولا أنكر أنني شعرت ببعض الارتياح.. حيث توقعت كوابيس هائلة يعيشها العالم في المستقبل البعيد.. ربما الصورة الوردية التي رأيتها -وإن خلت من البشر -أعطتني شعورا بالارتياح.. الزمن يعود بي إلى الوراء.. إلى عام 1966 أخيرا وكأن شيئا لم يكن!!.

بالطبع لم أخبر أحدا على الإطلاق بتجربتي تلك!!.. فلم أتوقع أن يصدقني أحد.. سنوات طويلة قضيتها في شقتي منعزلا تماما عن المجتمع.. أحلل وأدرس الآلات الدقيقة التي جلبتها معي من المستقبل!!.. مرت بي السنون حتى وصلت إلى أواخر الثمانين أو أوائل التسعين من العمر.. أصبحت شيخا عاجزا ضعيف البصر إلا أن صحتي جيدة قياسا لعمري.. فلم أكن مصابا بأمراض القلب أو الضغط أو السكري أو من تلك الأمراض التي تصيب الشيوخ عادة!!.. ربما لأنني ابتعدت طوال عمري عن العادات السيئة كالتدخين أو الأكل غير الصحي!!.. كنت أعيش السنوات الأخيرة

من عمري في عام 2007 متوقعا أنني لن أتوصل إلى حل اللغز.. لغز اختفاء الإنسان من على سطح الأرض عام 35 ألف ميلادية!!!!.. إلا أن الأمور قد انكشفت بصورة مفاجئة غير متوقعة إطلاقا!!!.. وبصدفة غريبة جدا!!!!.. انتظرت أربعين عاما تقريبا لأكشف سر اختفاء الإنسان من المستقبل البعيد.. ماذا حدث؟ ؟!.. سأخبركم.

طوال العقود الماضية من الزمن.. انتقل إلى الشقق المجاورة لشقتي جيران كثيرون.. بعضهم يستقر سنة أو سنتين ثم يخرج.. ليأتي غيرهم.. وهكذا!!.. وكانت علاقتي بالجميع سطحية جدا.. لا تتجاوز السلام عند مصادفتهم أثناء ذهابي لشراء بعض الاحتياجات!!.. فلم أكن أخرج من شقتي إلا للضرورة بسبب حبي للعزلة والاطلاع والبحث العلمي.

تغير جيراني مرات عديدة -كما أخبرتكم -إلى أن جاء الجار الذي عرفت منه كل شيء!!.. ففي ذلك اليوم.. كنت واقفا خارج العمارة السكنية التي أسكنها.. أنتظر سيارة الأجرة التي طلبتها في الهاتف للذهاب إلى السوق المركزي لشراء بعض الحاجيات الضرورية!!.. إذ لم أعد قادرا على القيادة بسبب ضعف بصري وكبر سني!!.. و...

-هل تريدني أن أوصلك لمكان ما يا جدي؟ ؟!..

قالها شاب لا يتجاوز عمره الثلاثين عاما!!.. التفت إليه.. آه إنه أحد الجيران الذين انتقلوا هنا حديثا.. قلت له بلهجة أبوية:

-شكرا يا ولدي.. كنت فقط أريد الذهاب إلى السوق المركزي..

نظر إلي مشفقا لكبر سني.. فقال بحزم:

-سآخذك بنفسي يا جدي لتشتري حاجياتك ثم أعود بك إلى شقتك.

نظرت إليه ممتنا لهذا العرض المغري ولم أكن لأرفض.. فاتصلت بشركة سيارات الأجرة لألغي الحجز وركبت مع ذلك الشاب لأجلس في سيارته مسترخيا.. و.. صدقوني لا أعرف.. لا أعرف كيف حدث هذا!!.. ربما هي إرادة الله سبحانه وتعالى الذي لم يكن يريد أن تضيع سنوات عمري كلها هباء بعد محاولات عديدة لمعرفة سر اختفاء البشر في المستقبل البعيد!!.

فقد نظرت -لا شعوريا -إلى الجيب الجانبي لباب السيارة من ناحيتي لأرى شيئا غريبا مألوفا جدا مخبأ به!!.. ما هذا الشيء؟ ؟!.. لقد رأيته مرارا حتى مللت من رؤيته.. إنه.. إنه يشبه أحد الأجهزة المجهولة الدقيقة التي جلبتها معي من المستقبل.. أكاد أقسم أنه أحد تلك الأجهزة!!.. شعرت بقلبي يخفق بقوة و..

-لقد وصلنا يا جدي..

التفت إليه بحدة وكأنه أيقظني من سبات عميق.. ثم ابتسم بحرج قائلا:

-هل أفزعتك؟ ؟!.. أنا آسف..

لم أرد.. بل قلت له بحزم واضح وبلهجة رجل يعرف ما يقول:

- أريدك أن تعود بي إلى شقتي الآن.. الآن لو سمحت.. ثمة أمر هام أريد أن أتحدث إليك بشأنه!!!..

قال مستغربا:

-ولكن يا جدي....

قاطعته بحزم شديد:

-أرجوك.. أرجوك لا تناقشني في هذا.. فلنعد.. هناك أمر خطير جدا يجب أن نتحدث بشأنه..

مط الشاب شفتيه علامة الاستغراب.. ثم غمغم ببضع كلمات لم أفهمها!!.. واستدار عائدا بي إلى شقتي حيث دعوته للدخول.. لا أذكر متى كانت المرة الأخيرة التي زارني فيها أحد في شقتي.. حقيقة لا أذكر!!!..

جلسنا في صالة الشقة وهو ينظر إلي باستغراب وترقب.. ثم قلت له وأنا أنظر إليه مباشرة:

-اسمع.. أرجوك أن تتكلم معي بصراحة دون أن تخشى شيئا..

ابتسم بارتباك وهو ينظر إلي وكأنه يشجعني على الاستمرار في الحديث..

-اسمعني يا ولدي.. لقد رأيت الآلة الدقيقة التي تخفيها في سيارتك.. من أين جئت بها؟!.. إنني أملك مثلها تماما..

نظر إلي بارتياح شديد.. ثم أردف ضاحكا:

-أنت أيضا؟ ؟!.. أنت أيضا من المستقبل؟؟!!..

صعقت عند هذا الرد وانتفضت بشدة لردة فعله فسألته باستغراب بالغ:

- ماذا تعني؟؟؟!!.. ألا تشعر بأي مفاجأة؟؟؟!!.. ثم.. ثم إنني من هذا الزمن ولست من المستقبل؟؟!!.. لماذا ظننتني من المستقبل؟؟!!!..

نظر إلي بدهشة.. ثم سألني:

-كيف؟؟!!.. كيف تكون من هذا الزمن؟؟!!

أخبرته باختصار بقصة اختراعي لآلة الزمن وزيارتي للمستقبل البعيد الذي كان يخلو تماما من البشر.. فتنهد وأخذ زفيرا عميقا.. ثم تحدث وكأنه ينوي إلقاء محاضرة ليسمعني آخر ما قد يتوقعه إنسان:

-سيدي.. إنني أصدقك بالطبع ولا أشك في كلامك.. و.. لا أعلم في الواقع من أين أبدأ.. ربما.. ربما يجب أن نتحدث عن تلك الفترة من المستقبل البعيد.. عندما تم الإعلان رسميا من قبل أحد أعظم العلماء عن صنع أول آلة زمن في تاريخ البشرية.. بالطبع لم يعلم أحد أنك قد توصلت إليها قبل ذلك بآلاف السنين وبعبقرية تثير الإعجاب بحق!!.. المهم.. لقد كانت تلك الآلة حديث الساعة.. خاصة بعد أن تمت تجربتها بنجاح على حيوانات التجارب.. وقد كان العالم في زمني يعيش حياة جامدة باردة قتلتها المادة قتلا!!.. صحيح أننا نعيش في عالم متقدم جدا تكنولوجيا وحضاريا.. لدرجة أن البشرية قد أنهت صراعاتها كلها واتجهت ناحية التنمية والبناء.. لكن الجميع كان يعاني فراغا روحيا رهيبا في ظل حياة جامدة مملة.. فأصبح تعامل الناس مع بعضهم ماديا بحتا.. وراحت العلاقات الأسرية تنهار شيئا فشيئا.. حتى أصبحت كلمات مثل (الحب) و(البراءة) كلمات تافهة مضحكة.. بل وأصبح إنجاب الأطفال مقننا جدا.. فالعمل هو الشعار.. العمل ولا غير العمل.. يعمل الإنسان طوال أيام الأسبوع.. فمجتمعنا خلية نحل لا تهدأ أبدا.. ولا يمكن أن تعيش ما لم تكن منتجا في عملك إلى أقصى حد.. لذا فقد قل الاهتمام كثيرا بالعلاقات الأسرية..

وأصبح إنجاب الأطفال أمرا نادرا.. فلم يعد المتزوجون يكترثون بالإنجاب كثيرا.. فالعمل هو المهم.. وإنتاج الإنسان في مجتمعه هو المهم.. ساعات العمل تضاعفت.. ومشاعر الإنسان تناقصت!!.. حتى تناقص عدد سكان الأرض إلى مليارين فقط بسبب قوانين تنظيم الأسرة وبسبب عدم رغبة العديد من المتزوجين بالإنجاب سوى لطفل واحد.. أو طفلين.. وأحيانا كثيرة عدم الإنجاب بالمرة!!!.. تخيل أن تعيش في مجتمع تكون فيه كالآلة.. تعمل فيه أكثر من أربعة عشرة ساعة يوميا دون توقف!!..

سكت قليلا ممتعضا وكأنه يطرد ذكرى مريرة.. ثم أردف قائلا:

-وشيئا فشيئا.. لوحظ اختفاء عدد كبير من الناس!!.. وراحت بلاغات الاختفاء الجماعية لأفراد وأسر كاملة تتوالى عند أجهزة الشرطة دون أن يعلم أحد سببها!!.. ثم اتضحت الصورة مع مرور الأيام.. إذ قام ذلك العالم ببيع سر صناعة آلة الزمن للعديد من الشركات التي أنتجت بدورها العديد منها سرا!!.. ليستخدمها الناس للهجرة إلى أزمان مختلفة من الماضي حيث العلاقات البشرية حميمة ودافئة.. وشيئا فشيئا.. بدأت (الهجرة الزمنية) تنتشر بين الناس!!!.. وهي ربما أول وآخر هجرة من نوعها في تاريخ الإنسان!!!.. فقام البشر -مع وفرة آلات الزمن-بالهجرة إلى الأزمان التي يريدونها.. منهم من انتقل إلى ما تطلقون عليها (العصور الوسطى) ومنهم من انتقل إلى (عصر النهضة).. إلخ!!!.. حتى تناقص عدد السكان في المستقبل إلى حد مروع وبقيت قلة قليلة جدا من البشر مستمتعة بحكمها لكوكب الأرض بالكامل.. كنت أنا أحدهم!!.. ولكن الحياة لم تعد تطاق!!.. فقد تناقص عدد سكان الأرض إلى أقل من مليون موزعين على كل مكان في العالم!!.. فأصبحت مقيما في مدينة كاملة لا يعيش فيها سوى تسعة أشخاص فقط!!.. ومن هنا قررنا الهجرة أيضا.. ولا أنسى أن أخبرك أن جميع من انتقلوا إلى الماضي ضبطوا آلات الزمن بعد ذلك ليرسلوها إلى مستقبل بعيد جدا.. حتى لا يعثر عليها أحد..

سكت قليلا ثم أردف:

-ألم تسأل نفسك عن سر النهضة الرهيبة والتقدم التكنولوجي المذهل الذي شهده الإنسان في القرون القليلة الماضية؟ ؟؟.. إن تقدم الإنسان في القرنين الماضيين يفوق تقدمه في العشرين ألف عام الماضية ([10]).. بل إن التقدم العلمي الذي شهده العالم في السنوات الأخيرة يبدو مريبا جدا ومثيرا للتساؤلات قياسا بآلاف القرون من الجهل والتخلف!!.. لقد كان السبب في هذه الثورة العلمية إنسان المستقبل!!.. فجميع العلماء الذين تعرفونهم هم في واقع الأمر من المستقبل.. (نيوتن).. (آينشتين).. (توماس أديسون).. إلخ.. جميعهم تقريبا قد جاؤوا من المستقبل البعيد.. لكنهم أعطوا البشرية بعض علومهم حتى يستوعبها العقل البشري..

بعضهم -مثل (ليوناردو دافنشي) ([11])-قدم للبشرية علوما لم يفهمها أحد في زمنه.. لهذا لم يكرر أحد هذا الخطأ.. وأصبح كل مهاجر من المستقبل يتعامل مع البشر على حدود عقلهم واستيعابهم.. لحسن الحظ لم يكن أحد في زمني يعرف الأسلحة.. وإلا استغلها في السفر إلى الماضي وإخضاع البشر تحت سيطرته مثلا.. فالبشر في زمني لم يعرفوا الحروب والقتل.. هذه باختصار يا جدي قصة المستقبل الذي جئت منه!!.

انتهى من كلامه.. ولم يعد هناك ما يقال!!.. كل ما ذكره لي منطقيا إلى أبعد الحدود.. فلم أكذبه على الإطلاق.. لقد رأيت الصدق بعينيه وفي كلامه.. فتنهدت أخيرا بارتياح!!!.. لم يعد يهمني كثيرا ما سيحدث في المستقبل البعيد.. سأموت بعد سنوات -وربما شهور -قليلة.. لكنني عرفت الآن

كل شيء.. عرفت لماذا تزايد سكان كوكب الأرض بهذه السرعة الرهيبة ([12]) خلال سنوات قليلة في تاريخ البشرية.. إنها قصة غريبة بحق.. لكنها منطقية!!.. وتفسر الطفرة العلمية المريبة التي عاشها العالم في القرنين الماضيين والانفجار السكاني المذهل الذي حدث في القرون القليلة الماضية!!.. سأعيش أيامي الأخيرة دون قلق بعد أن عرفت مصير إنسان المستقبل الذي اندمج مع إنسان الماضي وإنسان الزمن الحالي.. و.. ارتسمت على وجهي ابتسامة.. ابتسامة ارتياح.. ابتسامة من عرف ما يستحق معرفته قبل أن يموت.

وابتسم الحظ

إنني إنسان عادي جدا.. لا يوجد في حياتي ما يميزها على الإطلاق.. بل وربما لا يسع أي منصف إلا أن يقول إنني إنسان فاشل!!.. فالواقع أنني فشلت بالفعل في كل شيء جربته في حياتي!!.. فشلت في دراستي.. فشلت في مشروع تجاري كنت أعقد عليه آمالا عريضة.. فشلت حتى بعلاقة الحب الوحيدة التي عشتها!!.. بل واستمر مسلسل الفشل حتى عندما ظننت أن الدنيا ستضحك لي أخيرا!!.. كان ذلك عندما تزوجت تلك الفتاة.. لا أعرف في واقع الأمر كيف وقعت في غرامي.. يطلقون على ذلك اسم (النصيب) أحيانا حين لا يجدون مبررا لزواج امرأة من رجل تفوقه هي في كل شيء -والعكس صحيح بالطبع -فقد كانت زوجتي جميلة جدا.. ثرية جدا.. وقد كنت على يقين بأنها سترفعني لمستواها الاجتماعي والمادي.. ولا أنسى أبدا أنها واجهت صعوبات كثيرة من أهلها ومعارضة قوية عندما تقدمت لطلب يدها.. لكنها كانت أقوى من الجميع وفرضت كلمتها على والديها وأخوتها!!.. حدث كل هذا دون أن أنتبه مع الأسف إلى أن قوة الشخصية هذه ستلتهمني التهاما عندما نتزوج!!.. خاصة أنني إنسان ضعيف.. مهزوز.. قلق.. دائم التوتر!!.. ولكن الحب والطموح أعميا بصيرتي تماما.. ولا أعتقد أنني ملام لهذا.. فمن يضيع من يديه فرصة الارتباط بفتاة كتلك التي تزوجتها؟!!.

إلا أن أحلامي قد ذهبت أدراج الرياح!!.. وعرفت أن الدنيا لا يمكن أبدا أن تبتسم لي!!. فبعد شهور قليلة من الزواج.. فرضت زوجتي سيطرتها على كل شيء في البيت.. حتى صرت أعيش ذليلا تحت رحمتها عاجزا عن اتخاذ أي قرار.. وكانت تتمادى في تصرفاتها معي.. فأصبحت هي الآمر الناهي.. تخرج دون إذني وتصرخ بوجهي وتشتمني!!!.. وفي المقابل كنت أنزوي يوما بعد يوم وأنعزل عن العالم دون أن أتمكن من القيام بخطوة إيجابية واحدة.. فالطلاق معناه العودة إلى الفقر.. العودة إلى حياة غير مستقرة ماديا.. لذا لم يكن الطلاق خيارا متاحا بالنسبة لي.

لن أطيل عليكم في وصف أحزاني.. فزواج رجل فقير من امرأة ثرية قوية متسلطة أمر يحدث كثيرا ولا يوجد ما يستحق الذكر بشأنه.. وجميعنا نعلم تبعات تلك الزيجة في مجتمعنا الغارق في المظاهر!!!.. ولكن.. ما حدث بعد ذلك هو ما غير حياتي تماما وجعلني أكتب لكم قصتي هذه!!!.. ما زلت أذكر تلك الليلة جيدا.. عندما وجدت في حقيبة زوجتي صورة لها مع رجل لا أعرفه!!!.. لم يتطلب الأمر إلى ذكاء لأعرف أن زوجتي تخونني!!.. لا شك أنها إرادة السماء التي جعلتني أبحث في حقيبتها.. فلا أعرف ما الذي جعلني أشعر أنني سأعثر على شيء مريب في الحقيبة!!.. ربما هي واحدة من تلك اللحظات النادرة التي تشعر بأنك ستكشف شيئا مريبا إذا ما عبثت بحقيبة زوجتك!!.. ماذا كانت ردة فعلي؟ ؟!.. لقد انتفضت بقوة دون شك.. فمسألة الشرف عند الرجل الشرقي هي مسألة حياة أو موت!!.. كان يجب أن أتوقع خيانتها منذ زمن.. فكل ما تفعله في حياتها يوحي بأنها امرأة تفعل ما تريد ولا تهتم لأحد!!.

كانت زوجتي -وقت عثوري على الصورة- في الطابق الأرضي تشاهد التلفاز!!.. فذهبت إليها والشرر يتطاير من عيني لأول مرة في حياتي وجسدي ينتفض غضبا!!.. رأتني وفوجئت بتلك النظرة التي أنظر بها إليها.. لكنها رغم ذلك لم تهتز إطلاقا.. بل نظرت إلي ببرودها المعتاد متسائلة عن سبب غضبي!!.. فأخرجت لها الصورة ووضعتها أمام وجهها!!.. لكنها لم تكترث على الإطلاق!!.. بل نظرت إلي بتعال وقالت:

-فلتذهب إلى الجحيم.. إن لم تكن تريد الحياة معي فلتطلقني الآن وعد إلى بيتك كالكلب تحاصرك الديون دون أن تحصل مني على فلس واحد.. أنت نكرة.. أنت لست رجلا.. إن هذا الذي أحبه هو رجلي الحقيقي.. أما أنت فغلطة.. غلطة شنيعة ارتكبتها وسأصلحها قريبا.. إنك....

لم تكمل كلامها.. لأنني أمسكت بالتمثال النحاسي الموجود في غرفة المعيشة.. وهويت به على رأسها بقوة!!!.. فانفجرت الدماء من رأسها وهي تنظر إلي بذهول قبل أن تهوى ميتة على الأرض!!!.. عندها فقط أدركت فداحة ما فعلت!!.. لقد.. لقد قتلتها.. قتلت زوجتي!!.. ساقاي لم تتمكنا من حملي.. فوقعت على الأرض وجسدي كله ينتفض.. ماذا سأفعل؟؟!!.. نظرت إلى جسدها الممدد على الأرض والدماء ما زالت تتفجر من رأسها.. فأصبت بشلل لحظي ظللت بسببه عاجزا عن اتخاذ أي ردة فعل!!!.. دقائق قليلة.. ثم اغرورقت عيناي بالدموع!!.. ورحت أبكي كحال أي شخص جبان عاجز عن اتخاذ أي خطوة إيجابية!!.. لقد عشت طوال عمري فاشلا وأصبحت بالإضافة إلى ذلك قاتلا!!.. سأخسر حتى حريتي!!.. سينتهي بي المطاف في السجن أو ربما حبل المشنقة!!!.. وحتى لو تمت تبرئتي -على اعتبار أنني ارتكبت جريمتي في حالة دفاع شرعي عن العرض- فلن أرث فلسا واحدا.. إن عائلتها قوية جدا وتستطيع توكيل عشرات المحاميين لنسف قضيتي!!.. ماذا سأفعل؟ !!.. مهلا.. ما هذا الصوت؟ !!.. جرس الهاتف النقال يرن!!.. إنه ليس هاتفي.. إنه.. إنه هاتف زوجتي!!.. هرعت مسرعا إلى هاتفها لأعرف المتصل.. فعرفت من خدمة (كاشف الرقم) هوية المتصل.. اسمه (حبيب الروح) !!.. يظهر أنه عشيق زوجتي.. هذه الخائنة القذرة!!!.. لم أرد على الهاتف بالطبع.. بل ظللت بالمقابل متسمرا غارقا في تفكير عميق.. لقد.. لقد واتتني فكرة جهنمية!!.. ولكنها تحتاج بعض المراجعة!!.. ظللت جالسا في مكاني قرابة الساعتين أفكر بخطتي هذه.. لن أخسر شيئا.. يجب أن أحاول.

أمسكت بهاتف زوجتي النقال وأرسلت من خلاله رسالة هاتفية إلى عشيقها الوغد أقول له فيها: ((حبيبي.. أريد أن أقابلك لأمر هام جدا.. أرجوك لا تتصل بي.. فقط تعال إلى مواقف سينما (الشعب).. وانتظرني هناك بالقرب من شباك تذاكر السينما.. أرجوك كن هناك في الحادية عشرة مساء)).

كان هذا نص الرسالة.. أتمنى أن يبتلع الطعم ويأتي.. لماذا فعلت هذا؟ ؟!.. ستعرفون لاحقا!!.

كنت منتظرا في سيارتي أمام شباك التذاكر في سينما (الشعب) منذ العاشرة والنصف.. دقائق قليلة حتى حضر ذلك الوغد.. لا شك أنه هو!!.. رجل وسيم شديد الاعتداد بنفسه كما يبدو لي ويركب سيارة (جيب) فارهة.. إنه هو بالتأكيد.. تماما كما يبدو في الصورة التي عثرت عليها في حقيبة زوجتي!!!.

جلس ينتظر أكثر من ساعة دون أن تظهر زوجتي بالطبع.. حاول الاتصال بها ليعرف سبب تأخرها.. هاتفها النقال الذي جلبته معي يرن.. لكن -بالطبع -لا أحد يرد.. يأس بعدها من الانتظار وركب سيارته ليعود من حيث أتى!!.. لأبدأ بعدها بملاحقته بحذر شديد إلى أن وصلنا إلى منطقة (الشامية) حيث منزله.. هذا رائع!!.. لقد نجح الجزء الأول من خطتي.. عرفت سيارته وعرفت أين يسكن!!.. ويبقى الجزء الثاني.. الجزء الأهم والأصعب والأخطر.

عدت إلى البيت وإلى غرفة النوم تحديدا حيث جثة زوجتي والدماء حولها.. وقمت بعدها بلف الجثة بسجادة كبيرة وجسدي ينتفض بقوة!!!.. لو رآني أحد فسأكون في ورطة حقيقية.. ولكن لحسن الحظ كان الشارع خاليا تماما.. فالساعة تقترب من الواحدة فجرا.. ولم يكن حمل السجادة

التي تحوي جثة زوجتي أمرا هينا.. فقد شعرت أن عمودي الفقري سينكسر لا محالة!!.. ولكن كان عقلي هو الذي يؤدي العمل وليس جسدي!!.

وضعت جثة زوجتي في صندوق السيارة وخرجت متوجها إلى منزل ذلك الوغد!!.. لحسن الحظ أن بيته في حي داخلي وليس على الشارع العام مثلا!!.

وصلت إلى منزل عشيق زوجتي أخيرا.. فنزلت من سيارتي متجها إلى سيارته.. نعم.. هو ما تفكرون به بالضبط.. سأضع جثة زوجتي في صندوق سيارته وألبسه التهمة!!.. هذه هي خطتي.. لا شك أن رائحة الجثة ستصل إلى أنفه عندما يركب السيارة.. فلا تنسوا أن سيارته من طراز (جيب) وصندوقها مكشوف على عكس سيارات الصالون!!.. ولا شك أيضا أنه سيصاب بصدمة مروعة عندما يكتشف أن سبب تلك الرائحة هو جثة عشيقته الموجودة في صندوق سيارته.

لو نجحت خطتي فسأضحك كثيرا.. سأضحك كثيرا وأنا أتخيل ملامح المفاجأة على وجهه.. ولكن لننسى كل هذا الآن.. يجب أن أفتح صندوق السيارة أولا.. ألتفت يمينا ويسارا بخوف آملا ألا يراني أحد في هذا الوقت المتأخر.. وأحاول التركيز على فتح قفل صندوق السيارة بواسطة مطواة صغيرة دون أن أتلف القفل حتى لا يثير الأمر شكوك رجال الشرطة فيما بعد!!.. أكثر من ساعة تقريبا وأنا أحاول.. حتى سمعت أجمل صوت في حياتي.. تتك تتك!!!.. نعم.. لقد انفتح الصندوق.. ذهبت كالمسعور إلى سيارتي وأنا ألتفت يمينا ويسارا.. أخرجت جثة زوجتي من السجادة الملفوفة.. ووضعتها بصعوبة في صندوق سيارة ذلك الوغد.. ثم عدت إلى البيت وقلبي يتواثب كالقرد الصغير!!.. فكان أول ما فعلته تنظيف البيت بالكامل.. لحسن الحظ لا توجد لدينا خادمة.. فقد رحلت الخادمة السابقة ولم تصل الجديدة من بلدها بعد..

رحت أنظف البيت وأمسح كل ركن فيه.. قمت بغسيل كل شيء.. حتى ثيابي وحذائي!!.. عملية تنظيف تطلبت أكثر من خمس ساعات بذلت فيها جهدا لا يصدق لأمسح كل أثر قد يدينني.. السجادة؟!.. لقد تخلصت منها في إحدى حاويات القمامة في منطقة سكنية أخرى بعيدة قبل أن أعود إلى البيت!!.

ثم جاءت اللحظة الحاسمة.. اتصلت بالشرطة لأبلغهم عن اختفاء زوجتي.. لم يكن هناك داع لاصطناع القلق.. فقد كنت قلقا فعلا.. و.. ما هذا؟!.. هناك جرح في ذراعي.. جرح صغير جدا ما زال ينزف!!.. من أين جاء؟؟.. عندها فقط تذكرت.. يا إلهي.. لقد جرحني خاتم كانت ترتديه زوجتي!!.. جرحني خاتمها عندما كنت أحاول إخراج جثتها من سيارتي إلى سيارة عشيقها.. لا شك أن الطبيب الشرعي سيجد بعض الدماء في خاتمها!!.. اللعنة!!.. وقعت على الأرض غير مصدق أن خطتي ستذهب أدراج الرياح بسبب هذه الغلطة البسيطة.. حقا أن الجريمة الكاملة مستحيلة!!.. وضعت يدي على رأسي لتنهمر دموعي شاعرا بالضياع.. سيعرف رجال الشرطة كل شيء إن عاجلا أم آجلا!!.. لا شك أن الطب الجنائي سيكشف نقطة دم حديثة العهد في خاتم زوجتي وستحوم الشبهات حولي بصورة قوية وسيصبح من الصعب الإنكار!!..

ظللت مستيقظا طوال الليل شاعرا بضياع ما بعده ضياع.. قبل أن تصل دورية شرطة إلى منزلي في الحادية عشرة صباحا!!.. ليخرج منها ضابط برتبة عالية معه شرطي في مثل عمري.. فتحت لهما الباب بيد مرتعشة متوقعا أن يلقيا القبض علي.. ولكن.. ما أخبراني به فاق كل تصوري!!!.. فاق كل ما قد يتخيله إنسان!!!.. فقد نظر إلي الضابط بأسى وهو يقول:

-سيدي.. لا شك أنك رجل مؤمن.. وتؤمن بقضاء الله و..

قاطعته بهلع:

-ماذا حدث؟!.. أخبرني!!!..

زفر بقوة وهو يقول:

-زوجتك.. لقد.. لقد وجدناها..

جف حلقي تماما وأنا أستمع إليه.. و:

-سيدي.. زوجتك.. لقد ماتت!!..

صرخت به بقوة:

-كيف.. كيف ماتت؟؟!!..

نظر إلي بأسى وهو يقول:

-لقد كانت برفقة رجل آخر عندما تعرضت سيارته لحادث سير مروع صباح اليوم.. حادث سير انقلبت على إثره السيارة أكثر من ثلاث مرات بناء على كلام الشهود.. قبل أن تحترق بمن فيها.. لقد احترقت الجثتان تماما!!.. أرجوك تقبل تعازينا يا سيدي.. أرجوك أن....

لم أستمع إلى باقي كلامه.. يا للهول.. إنه أمر يفوق الوصف.. إنها هدية العمر.. هدية السماء.. بدأ عقلي يعمل بسرعة البرق!!.. لا شك أن جثة زوجتي قد خرجت عنوة من صندوق السيارة عندما انقلبت فيها مع عشيقها لتستقر الجثة داخل السيارة!!.. إنها سيارة (جيب) وصندوقها مفتوح من الداخل كما نعلم جميعا.. لا شك أنهم وجدوا جثة زوجتي داخل السيارة وليس داخل الصندوق بعد أن حدث الانقلاب.. لهذا ظنوا أنها كانت برفقته.. و.. بعد أن احترقت الجثتان بالكامل بسبب حادث السير.. لم يعرف رجال الشرطة أن زوجتي كانت مقتولة أصلا قبل الحادث!!.

لقد نجوت!!.. نجوت.. لم أستطع كبح دموعي.. والضابط يربت على كتفي مهدئا.. إنها دموع الفرح أيها الأحمق!!.. لقد كسبت.. لأول مرة في حياتي ينتظرني مستقبلا مشرقا!!!.. سأرث أموال زوجتي.. سأصبح أرملا.. بينما هي التي ستوصم بالعار مع أهلها الأوغاد الذين أذلوني ذلا لم يره أحدا!!.. لقد انقلبت حياتي رأسا على عقب.. انقلبت إلى الأفضل.. وللأبد.. بفضل الله سبحانه وتعالى.. بفضل عدالة السماء.

عودة.. إلى الحياة

ما الذي سنشعر به عندما نلفظ أنفاسنا الأخيرة؟؟!!.. هل سنشعر بالخوف؟ ؟!.. هل سيمر شريط حياتنا بمسراتها وأحزانها في لحظة كما يقولون في القصص؟؟!!.. لطالما فكرت في تلك التساؤلات!!.. منذ أكثر من خمس سنوات وتلك التساؤلات لا تغيب عن ذهني!!.. لأنني أترقب الموت.. أترقبه طوال تلك السنوات.. والسبب هو ذلك الورم الخبيث الموجود في دماغي والذي عجز جميع الأطباء عن علاجه!!.. وها أنا الآن ألفظ أنفاسي الأخيرة بعد أن تمكن مني الورم تماما!!.. أشعر بوالدتي تبكي وهي تجلس بجانبي!!.. زوجتي الحبيبة وابنتي يجلسون جميعا حولي والصمت المطبق يخيم على المكان مع بعض الشهقات والدموع التي أصبح لها حضور قوي في هذه الغرفة في مستشفى (مبارك).. حيث أكد لي جميع الأطباء أن علاجي مستحيل تقريبا!!.. لذا فأنا الآن أعيش لحظاتي الأخيرة!!.. إنني أغمض عيني ببطء شديد وضوء الحياة يخبو شيئا فشيئا.. و.. أغمضت عيني أخيرا!!.. مهلا.. هل.. هل هذا هو شعور الموتى؟؟!!.. لا أعتقد.. ما زلت أشعر أنني حي!!.. ولكن ما هذه الأصوات من حولي؟!.. وكأنني في الشارع وسط الزحام؟!.. فتحت عيني لأجد آخر شيء قد يتوقعه إنسان؟ !!.. إنني.. إنني في منطقة (السالمية)!!!.. نعم.. إنني أقف وسط الزحام سليما معافى في أحد شوارع منطقة (السالمية)!!!!.. كيف أتيت إلى هنا؟!.. هل أنا أحلم؟!.. قطعا لا.. لا يمكن أن يكون هذا حلما!!.. هل كان وجودي في المستشفى هو الحلم؟!.. لا.. مستحيل أيضا.. أعرف أن كل ما مررت به في المستشفى واقع وحقيقي تماما.. وأعرف أيضا أن ما يحدث لي الآن حقيقي أيضا!!.. أنا أقف وسط المحلات التجارية في منطقة (السالمية) بالفعل!!.. ألتفت يمينا ويسارا وأنا في حالة ذهول تام؟؟!!.. ما الذي يعنيه كل هذا؟!.. مهلا.. مهلا!!!.. تلك السيارات التي تملأ الشارع؟ ؟!.. إنها من الطراز القديم!!.. طراز فترة السبعينيات!!.. طراز تلك الأيام السعيدة!!.. إنني في الماضي وفي فترة السبعينيات تحديدا!!!!.. هذا لا شك فيه.

هرعت إلى إحدى البقالات التي تمتلئ بها منطقة (السالمية) وأنا في حالة ذهول شديد.. فوجدت بعض الصحف الموجودة على الأرفف بجانب البقالة.. نظرة سريعة إلى الأسطر الأولى من الصفحة لأعرف تاريخ صدور الجريدة..22/1/1977!!.. يا إلهي.. ما هذا الغموض؟؟!!.. لقد عدت إلى الماضي؟!.. هل هي هلوسة من هم على أعتاب الموت؟ !!.. مستحيل!!.. إنني أشعر ببرودة شديدة!!.. طبعا.. فنحن في شهر يناير!!.. لا يمكن أن يكون كل هذا وهم..

أنظر إلى ثيابي لأجد نفسي مرتديا ثيابا شتوية لا أذكر أنني رأيتها من قبل!!.. هناك أمر غريب يحصل هنا.. ظللت أمشي في شوارع منطقة (السالمية) التي تختلف كثيرا عما هي عليه الآن ببساطتها وجمالها و.. يا إلهي!!.. هذا الطفل.. طفل لا يتجاوز عمره الستة أعوام.. إنه يندفع بقوة نحو الشارع!!.. ووالده غير منتبه.. لابد.. لابد من إنقاذه.. هرعت مسرعا لإنقاذ الطفل.. والسيارة تقترب.. أنتم تعرفون هذا المشهد جيدا!!.. إنه يتكرر في كل فيلم ومسلسل.. لذا فلا داعي لوصفه!!.. لحظات قليلة قبل أن يرى فيها الأب طفله مرميا على الأرض بعد أن دفعته عن الطريق وقفزت إلى الناحية الأخرى من الشارع.. لا توجد إصابات سوى بعض الرضوض البسيطة هنا وهناك.. أشعر بألم بسيط في كاحلي من جراء السقطة.. الأب يذهب ليطمئن على ابنه ثم ينهض مسرعا ليطمئن علي و:

-لا أعرف كيف أشكرك.. حقا لا أعرف!!.. لقد أنقذت ولدي الوحيد..

قال هذا واحتضنني بحرارة.. ظللت مشدوها لوهلة عاجزا عن الرد.. ليكمل كلامه قائلا:

-لا يمكن أن نتركك هكذا.. سآخذك إلى المستشفى للاطمئنان عليك..

قلت له والذهول ما زال يغلبني:

-لا داعي لكل هذا.. أنا.. أنا بخير!!

رد بإصرار:

-أقسم بالله العظيم أنني لن أتركك.. ولو كنت بخير فستأتي معي على الأقل إلى البيت.. بيتي ليس بعيدا عن هنا.. إنني أسكن في منطقة (الرميثية).. ولن أتركك قبل أن تشرفني في منزلي.

لم أجد ما أقول.. فنهضت من مكاني ونفضت بعض الأوساخ عن ثيابي.. وتبعت الرجل الذي ذهب ليحمل ولده إلى السيارة.. كانت (الكويت) رائعة بحق في تلك الأيام.. الناس طيبون بسطاء.. وكنت مستمتعا بكل لحظة من ركوبي السيارة وحتى وصولي إلى بيت هذا الرجل الطيب.. حتى أنني نسيت تماما أنني كنت قبل أقل من ساعة على فراش الموت ألفظ أنفاسي الأخيرة.

جلست مع زوجته وابنه نتبادل بعض أطراف الحديث.. كانت أسرة صغيرة تملأ الزمان والمكان.. وكان الطفل معجبا بي إلى حد كبير بعد أن أنقذته.. فتبادلت معه أطراف الحديث قبل أن أسأله بحنان:

-ما اسمك يا صغيري؟!..

رد قائلا باتزان لا يتناسب أبدا مع سنه:

-اسمي (فهد عبد المحسن ال...)..

قلت له وأنا أمسح على رأسه:

-اسمك جميل يا بطل.. و...

شعرت فجأة بآلام لا توصف!!.. أنا.. أنا ألفظ أنفاسي مرة أخرى!!.. ما هذا الذي يحدث لي؟؟!!.. الصورة تهتز أمامي.. ويكاد أن يغمى علي.. فتحت عيني مرة أخرى لأجد نفسي في المكان الذي كنت فيه في بداية قصتي!!.. فراش الموت في مستشفى (مبارك)!!.. والدتي وزوجتي تبكيان بفرح.. والدموع تغمر وجه ابنتي.. أشعر.. أشعر بأنني أفضل حالا!!!.. والدتي تبتسم وهي تمسح دموعها.. ألتفت حولي.. هل كنت أهلوس؟ ؟!.. هل كنت أحلم؟!.. ثم.. لماذا أشعر بتحسن؟!.. ولماذا يبدو الجميع سعداء؟؟!!.. قطعت والدتي تلك التساؤلات وهي تقول:

-الحمد لله على سلامتك يا ولدي.. الفضل يعود لله ثم لهذا الطبيب الذي أنقذ حياتك!!..

قالت والدتي هذا الكلام لتلتفت إلى الطبيب وتنظر إليه بامتنان!!.. قلت مستغربا وبصعوبة شديدة:

-مهلا.. ألم تقولوا في السابق إنه لا أمل هناك من شفائي؟!..

قالت ابنتي بسرعة:

-لقد ظن الجميع هذا.. قبل أن يأتي ذلك الطبيب العبقري ويقوم بالعملية التي أنقذت حياتك..

إنه بحق أكفأ الأطباء.. إنه فخر لشباب (الكويت).. إنه... سكتت بخجل بعد أن رأت أن في كلامها نوعا من الغزل!!..

التفت إلى الطبيب ممتنا وشكرته بصعوبة بالغة.. ثم:

-لم تخبرني باسمك يا دكتور!!..

قلتها له بلهفة شديدة.. فرد علي مبتسما:

-الدكتور (فهد عبد المحسن ال...)!!!!.. تشرفت بمعرفتك يا سيدي!!..

رددت بصعوبة:

-تشرفت بمعرفتك يا بني.. لا أعرف كيف أشكرك.. إنني....

مهلا!!!!.. نهضت كالملسوع من مكاني.. ثم شعرت بآلام مبرحة في جسدي.. فربت الطبيب على كتفي مهدئا.. هذا الاسم!!!!.. (فهد عبد المحسن ال..).. إنه الشخص الذي أنقذته في الحلم!!.. هل هي صدفة؟؟!!.. مستحيل!!!.. ظللت أفكر وأفكر حتى بعد أن تعافيت وخرجت من المستشفى.. إلى أن توصلت إلى استنتاج مذهل!!!.. هل.. هل عدت بوسيلة ما إلى الماضي أثناء غيبوبتي؟؟!!.. ربما هذا ما حدث!!.. ربما عدت إلى الماضي بالفعل.. لقد أعطاني الله سبحانه وتعالى فرصة النجاة!!.. نعم.. لقد تم إرسالي بوسيلة لا أعرفها إلى الماضي لأنقذ حياة هذا الطفل الذي أصبح طبيبا الآن وأنقذ بدوره حياتي!!!!..

هذه هي الفرصة الثانية التي أعطاني إياها الله سبحانه وتعالى.. لقد عاد بي إلى الماضي من أجل هذا.. ارتسمت ابتسامة وضاءة على وجهي.. أشكرك يا رب.. أشكرك يا إلهي.

وبعد تلك الحادثة بأسبوعين تقريبا.. فوجئت بالطبيب يزورنا في البيت طالبا يد ابنتي!!.. علامات الخجل والموافقة على وجهها!!.. و.. والديه!!.. إنهما الشخصان نفسهما اللذان جلست معهما عندما أنقذته وهو طفل!!.. إلا أنهما يبدوان أكبر سنا بالطبع!!.. إنهما لا يتذكراني.. لا شك في ذلك.. فقد أنقذت ابنهما منذ 30 عاما!!!!.. ولم أرهما بعد ذلك.

تأكدت الآن أنني لم أكن أحلم.. وأن الله سبحانه وتعالى قد عاد بي عبر الزمن إلى الماضي في تلك التجربة الغريبة التي لن أخبر بها أحدا على الإطلاق.. سأظل أتذكر تلك التجربة طوال العمر.. لقد أعطاني الله سبحانه وتعالى فرصة للنجاة لن أضيعها أبدا.. بل سأستغلها لأكون إنسانا منتجا في مجتمعي.. لأكون إنسانا أفضل.. خاصة وأنا أرى الدكتور (فهد) زوج ابنتي طوال الوقت.. فأتذكر تلك الحادثة دائما وأبدا.. وأضعها أمامي عندما أفكر بالإقدام على أي خطوة في حياتي.

رسالة غزو

كنت طوال تلك الأيام السوداء أطلب من الله في كل صلاة أن يأتي بمعجزة من السماء وينقذنا!!!.. والواقع أن كل سكان العالم كانوا يتمنون معجزة كهذه لتنقذ البشرية من حرب عالمية ثالثة تطرق الأبواب!!!.. خاصة عندما رأينا عبر شاشات التلفاز التهديد والوعيد بين زعماء الدول المتناحرة.. كانت الحرب ستبدأ بعد أيام قليلة دون أدنى شك!!!.. فجميع الدول المتناحرة قد حشدت قواتها استعدادا للحرب.. هل ستكون حربا نووية؟ ؟!.. على الأرجح نعم!!.. هذا ما كنت أتوقعه وأخشاه كالموت ذاته.. قبل أن تحدث المعجزة التي صلينا من أجلها.. معجزة من السماء!!!.. وذلك عندما هبطت مركبة فضائية اسطوانية الشكل عند مبنى الأمم المتحدة في مفاجأة هائلة صدمت العالم!!!.. ليخرج منها مخلوق فضائي بشري الهيئة لكن ملامحه تختلف تماما عن ملامحنا!!!.. فقد كان بشع المنظر إلى حد لا يوصف أعطى انطباعا تلقائيا بالعدوانية.. وكان يرتدي ثيابا فضية لامعة غريبة جدا!!!.. خرج من مركبته الفضائية التي هبطت دون أن ترصدها أجهزة الرادار الأرضية وتوقف أمام الحرس التابع لمبنى الأمم المتحدة!!.. حبس الجميع أنفاسهم إزاء هذا المشهد المهيب!!.. قبل أن يعي الحرس ما يحدث.. فقاموا بإطلاق نيرانهم على ذلك المخلوق الفضائي دون أي تحذير مسبق ظنا منهم أنه جاء بنوايا عدوانية!!.. ولم يكن أحد ليلومهم على هذا.. فنحن نتحدث عن حراسة مبنى الأمم المتحدة الذي كان يحوي حينها زعماء أكثر من 30 دولة!!!.

بالطبع كان ما حدث كفيلا بنسيان أي أزمات سياسية!!!.. فقد احتشدت وسائل الإعلام حول الطبق الطائر الذي أحيط بقوات الجيش والتي منعت بدورها كل متطفل من الاقتراب!!.. واحتشد العلماء أيضا حول الطبق الطائر لدراسته!!.. وتم أخذ المخلوق الفضائي إلى المختبرات لفحص أنسجته!!.

أسبوع كامل تحول فيه اهتمام جميع دول العالم وقنوات التلفاز وجميع المطبوعات إلى تلك الحادثة!!!.. نسي الجميع أمر الحرب التي كانت على وشك البدء!!!.. وأصبح العالم بأكمله يترقب وينتظر ما قد تسفر عنه أبحاث العلماء حول الطبق الطائر والغرض من زيارة ذلك المخلوق!!.. قبل أن يفجر العلماء القنبلة التي سببت ذعرا هائلا!!.. ذعرا على مستوى العالم!!.. فهذا المخلوق كان يحمل معه رسالة مطبوعة على ورق مصقول غريب الملمس كما وصفوه!!.. وتصدر عن كلماته إشعاعات ذرية محدودة تنم عن تطور مذهل!!!.. وقد كانت الرسالة مكتوبة بلغة غريبة غير معروفة.. لا.. في الواقع لم تكن مكتوبة بلغة محددة!!.. بل كانت رسالة مليئة بالرسوم والأرقام فك الخبراء رموزها خلال أيام قليلة.. حيث كان نصّها:

((نريدكم أن تقوموا بتسليم كوكبكم لقواتنا التي ستصل إليكم قريبا.. سلموا لنا كوكب الأرض دون مقاومة وستعملون عبيدا لدينا.. وفي حالة رفضكم ستبيدكم قواتنا وتدمر كوكبكم)).

كانت الرسالة مخيفة.. صدمت العالم الذي كان قد بدأ يتنفس الصعداء نوعا ما بعد أن انشغل الجميع عن الحرب النووية التي كانت تطرق الأبواب!!.

واجتمع رؤساء الدول في مبنى الأمم المتحدة لإنقاذ كوكب الأرض.. واتفقت جميع الأطراف التي كانت على خلاف.. فالأمر هذه المرة أخطر من حرب بين بعض الدول.. نحن نتحدث عن مخلوقات فضائية وعن إبادة جماعية.. أو عبودية إلى الأبد!!.. أي نهاية الجنس البشري في كلا

الحالتين كما هو واضح!!.

كانت الجلسة ساخنة جدا.. عجز فيها أي زعيم من زعماء العالم عن الإتيان بقرار واقعي ينقذ الأرض من هذه الكارثة!!.. وبعد بضعة أيام من الاجتماعات التي لم تتوقف في مبنى الأمم المتحدة.. قرر زعماء العالم التالي:

بناء قاعدة ضخمة على سطح القمر تصلح لإطلاق الصواريخ النووية ناحية أي مركبة فضائية قادمة.. ووضع أقمار صناعية دفاعية في كل مكان حول الأرض لرصد أي جسم غريب حتى يتم التعامل معه وإبادته.

طبعا لم يكن هذا القرار مطمئنا بما فيه الكفاية.. فنحن نجهل التكنولوجيا التي توصل إليها سكان ذلك الكوكب!!.. ولكن طالما أنهم قد وصلوا إلينا أولا.. فلا بد أنهم أكثر تقدما منا!!.. وقد اتخذت تلك المخلوقات جميع الاحتياطات كي لا نعرف شيئا عن مدى تقدمهم العلمي!!!.. فالطبق الطائر الذي هبط على سطح الأرض لم يكن يحوي أي أسلحة!!.. كما أن التكنولوجيا التي تسيّره مفهومة نوعا ما لعلمائنا.. كان واضحا أن تلك المخلوقات قد أخفت الكثير من علومها عندما أرسلت إلينا ذلك الطبق الطائر، حتى لا يقوم علماؤنا بدراسته وكشف مدى تقدمهم العلمي.

كان جميع علمائنا وخبرائنا العسكريين يتوقعون حربا شرسة خسائرها فادحة!!.. لهذا أوصى الجميع تقريبا بأن ننقل المعركة إلى الفضاء!!.. وهذا يتطلب أقمارا صناعية متطورة وقاعدة دفاع على سطح القمر.. بالطبع مبالغ هائلة وجهود رهيبة!!.. ولكن أمرا كهذا لا بد منه!!.. والأهم من كل ما ذكر هو توصل علمائنا إلى الفترة الزمنية التي سيحتاجها الغزاة للوصول إلى الأرض!!.. فبرأي العلماء أن هذه المخلوقات قد تصل إلى كوكبنا خلال سبعة أعوام على أبعد تقدير.. أي أن أمامنا وقتا لا بأس به لعمل كل ما يمكننا عمله لصد الغزو!!.

وبالفعل!!.. اتحدت جميع دول العالم لدرء الغزو الفضائي.. ووضعت جميع دول العالم جيوشها وأنظمتها الدفاعية على أتم الاستعداد.. وتبرعت جميع الدول الغنية بمبالغ هائلة من أجل إنقاذ الأرض.

و.... في ذلك البيت.. ذلك البيت المخفي الذي يقع في منطقة منعزلة بعيدا عن المدن.. كنت مع أبي ومجموعة من أصدقائه العلماء الذين لا يتجاوز عددهم الثلاثين.. كانوا يحتفلون جميعا بنجاح خطتهم!!!!!.. لم أفهم شيئا في بادئ الأمر.. ثم.. جاء والدي فجأة ليخبرني بالتفاصيل:

-اسمعني يا ولدي.. إنك في الخامسة عشرة الآن.. وأنا واثق أنك ستتصرف بمسؤولية وستخفي السر ولن تخبر به أحدا على الإطلاق!!!!..

نظرت إليه دون أن أفهم شيئا!!.. ثم نظرت إلى أصدقائه العلماء الذين كانوا يبتسمون جميعا وعلامات الارتياح على وجوههم.. فأردف والدي وابتسامة ارتياح مرتسمة على وجهه هو الآخر:

-حسنا يا ولدي.. سأخبرك بكل شيء!!.. كل الذي حدث منذ وصول تلك المركبة الفضائية إلى كوكب الأرض مسرحية!!.. مسرحية أعددتها مع زملائي العلماء بإتقان شديد.. أنت تعلم يا ولدي أنني عالم فيزياء.. وجميع أصدقائي الذين تراهم علماء في مختلف المجالات الأخرى.. وعندما شعرنا ببدء أزمة سياسية بين العديد من الدول منذ العام الماضي.. قررنا أن ننقذ الجنس البشري ونشغل الدول المتناحرة عن تلك الحرب ونوجه اهتمام المسؤولين إلى غزو فضائي ملفق قمنا

بالإعداد له بدقة متناهية!!!..

سكت والدي ليرى تأثير كلامه علي.. كنت مصدوما.. بل إنني فتحت فمي ببلاهة واستغراب وأنا أنظر إليه.. قبل أن يكمل حديثه قائلا بارتياح:

-لم يكن أمامنا سوى هذا الحل!!.. فحصلنا على تمويل من بعض الأثرياء الذين أعجبوا بالفكرة ووافقوا عليها مباشرة.. خاصة أنهم كانوا قلقين جدا بسبب الحرب النووية المرتقبة!!.. لقد تطلب الأمر في البداية صنع طبق طائر وضعنا فيه كل علومنا وأبحاثنا و.. إبداعنا.. حتى بدا متطورا إلى حد ما.. قياسا بعلومنا الحالية المعروفة.. ثم جاء أهم وأصعب ما في الموضوع.. المخلوقات الفضائية!!!.. فاقترح أحد زملائي العلماء أن نقوم بعملية تجميل.. أو.. فلنقل عملية (تشويه) لأحد العلماء!!.. من خلال التلاعب بجيناته وتشويه شكله تماما حتى يبدو مسخا مخيفا!!.. ثم كتابة رسالة بطريقة الرموز سيحتاج علماؤنا بضعة أيام حتى يقوموا بفك رموزها ليكشفوا ما تحويه من تهديد لغزو الأرض..

سكت والدي أمام أنفاسي المتلهفة.. وقال بأسف:

-لقد اضطررنا لإجراء قرعة لاختيار من سيقوم بهذه المهمة ويلعب دور المخلوق الفضائي!!.. رحم الله الدكتور (زياد)!!!.. لقد كان شجاعا بحق!!.. لم يتردد لحظة واحدة في تقديم حياته من أجل البشرية!!.. و.. لم يكن الأمر عسيرا بعد هذا.. فقد أرسلنا ذلك الطبق الطائر إلى الفضاء الخارجي باستخدام تكنولوجيا مضادة لأجهزة الرادار!!.. ثم..

اتسعت ابتسامته وهو يقول:

-أنت تعرف الباقي!!.. أليس كذلك؟!

انتهى والدي من كلامه بابتسامة رائعة أشعرتني بالأمان بحق.. لتتعالى صيحات الفرح من أصدقائه العلماء.. وأبدأ بدوري بالضحك والمرح معهم احتفالا بزوال الخطر!!.. ولكن.. مهلا!!.. لقد تذكرت أمرا هاما.. فسألت والدي بقلق:

-ماذا لو تم كشف الخدعة.. ماذا سيحدث يا أبي؟!..

هذه المرة تطوع أحد زملائه العلماء قائلا بابتسامة أبوية:

-لا تخش شيئا يا بني.. لن يعرفوا أبدا لأن أحدا لن يتوقع فكرة كهذه!!.. والدليل أن الجميع صدقوا ما حدث!!.. أليس كذلك؟!

ثم ضحك بمرح قائلا:

-ونحن على كل حال سنعلن الحقيقة كاملة للعالم بعد خمس سنوات من الآن!!.. ففي ذلك الوقت ستكون القيادات السياسية قد تغيرت في العديد من الدول العظمى.. وستخف حدة النزاعات كثيرا!!.. ستكون الأمور بخير.. لن نعلن عن تلك الخدعة إلا بعد أن نعرف أن العالم يعيش في سلام بعيدا عن النزاعات!!.. ولن يخسر العالم شيئا سوى سنوات قليلة من الخوف والترقب وصرف الأموال على التكنولوجيا العسكرية.. إن هذا ولا شك أفضل كثيرا من حرب نووية قد تقضي تماما على الجنس البشري..

أنهى زميل والدي كلامه وتعالت صيحات الفرح مرة أخرى.. و.. شيئا فشيئا.. بدأت أدخل معهم أجواء الاحتفال.. الاحتفال بنجاة العالم بواسطة تلك الخدعة العبقرية.. والتي قد تعتبر أكبر

وأضخم وأغلى خدعة في تاريخ البشرية!!!.

جريمة أغرب من الخيال

جريمة أغرب من الخيال!!.. هذا أنسب عنوان لقصتي!!.. لأن ما حدث كان أغرب من الخيال بالفعل.. إن قصتي غريبة.. شنيعة.. بشعة جدا!!!.. أرجوكم لا تقرؤوها إذا كنتم من أصحاب القلوب الضعيفة.. أرجوكم!!.

ما زلت أتذكر جيدا ذلك اليوم.. حين اكتشفت زوجتي خيانتي لها بعد شهور قليلة من زواجنا من خلال رسالة هاتفية تفيض بعبارات الغرام كنت قد بعثتها إلى إحدى الفتيات!!!.. كانت زوجتي غاضبة.. بل تنتفض غضبا وتبكي بحرقة.. غير مصدقة أنني ذات الشخص الذي كان يطاردها في كل مكان ويرجوها أن تقبل بالزواج منه.

بالطبع رحت أقسم لها بأغلظ الإيمان أنني سأحترم زواجنا من الآن فصاعدا وأن ما حدث كان نزوة عابرة وغلطة لن تتكرر أبدا.. إلخ من هذا الهراء!!!.. نعم.. كنت أقسم لها بهذا وأنا أعرف في قرارة نفسي أن الخيانة ستتكرر!!.. فأنا في واقع الأمر (زير نساء).. ضعيف جدا أمام الفتيات.. إنني أعترف بهذا دون مكابرة!!.. لقد ظننت أن زواجي سيبعدني عن تلك المغامرات العاطفية الطائشة!!!.. لكني كنت أحمقَ!!.. فمن الصعب جدا بالنسبة لشخص مثلي الاستقرار والزواج وتحمل أي مسؤوليات مترتبة على ذلك.. خاصة بعد أن عشت الكثير من التجارب والعلاقات العابرة التي أنهيها غالبا تاركا خلفي فتاة حزينة محطمة لأوقع بعدها بفتاة أخرى في حبائلي وأوهمها بحبي.. وهكذا!!!.

على كل حال.. لم تكن هذه نهاية زواجنا.. فقد غفرت لي زوجتي تلك الخيانة ظنا منها أنها الأولى والأخيرة.. لتستمر علاقتنا شهورا قليلة أخرى قبل أن تكتشف خيانتي مرة أخرى.. وهذه المرة في إجازة الصيف التي قضيناها في (أسبانيا) وفي غرفة الفندق تحديدا.. فقد كشفت زوجتي خيانتي عندما تركتها أثناء نومها في وقت متأخر بعد منتصف الليل للذهاب إلى دور اللهو!!.. حيث تركت بجانبها رسالة صغيرة أخبرها فيها أنني خرجت للتنزه قليلا بسبب بعض الأرق الذي أصابني.. كيف كشفت كذبتي؟!.. بسبب تلك التذكرة اللعينة التي اشتريتها للدخول إلى دار اللهو.. فقد نسيت التذكرة في جيبي ووجدتها زوجتي صباحا عندما كانت تفتش في جيوب ثيابنا المتسخة قبل أن تسلمها لمصبغة الفندق!!.

هذه المرة لم تسكت ولم تأبه لتوسلاتي واعتذاري!!.. فراحت تبكي وتتوعد بكشف أمري أمام أهلها وأهلي.. و.. تطلب الطلاق!!!.. كنت أرد عليها برجاء وتوسل.. ثم بدأت أحتد أنا الآخر أمام إهاناتها المتواصلة!!!.. لأوجه لها بدوري سيلا من الاتهامات التي أعلم جيدا أنها باطلة!!!.. فرحت أتحدث عن تقصيرها وإهمالها وعدم اهتمامها بنفسها!!.. لم تحتمل زوجتي أكثر من هذا.. لتتجاهلني بعصبية متوجهة إلى خارج الغرفة.. لم أحتمل بدوري أن تتجاهلني بهذا الاحتقار وتخرج!!.. فأمسكت بمعصمها لأمنعها من الخروج.. لكنها بصقت في وجهي!!!.. عندها فقط جن جنوني!!.. هذه الحقيرة.. أنا الذي لم أتعرض للإهانة في حياتي بهذه الصورة!!.. هذه إهانة قوية وصفعة على قفا أي رجل!!!.. لم أسكت بالطبع.. فوجهت لها -وأنا في ثورة غضبي -صفعة قوية جدا على وجهها!!.. أقوى صفعة ممكن أن أوجهها إلى إنسان.. لتسقط زوجتي على الأرض دون حراك!!!.

هرعت إليها مذعورا محاولا أن أعيدها إلى وعيها.. فرحت أنادي اسمها بجزع وأضرب وجهها برفق

لعلها تستفيق!!.. عندها فقط عرفت.. عرفت أنني قتلتها!!.. لقد التوى عنقها من قوة الصفعة!!!.. فلا نبض هناك على الإطلاق ولا شيء يوحي بأنها لا تزال حية!!.... سقطت على الأرض غير مصدق.. وشعرت برعب هائل!!!.. لقد وضعت نفسي في كارثة.. بل مصيبة!!.. سيضيع مستقبلي بالكامل.. سيضيع عمري كله بسبب ما حدث!!!.. هل أتصل بالشرطة؟!!!.. إنني في أوروبا ولست في (الكويت).. القانون هنا لن يرحمني أبدا!!.. سأدفع ثمن فعلتي غاليا!!!.. ظللت دقائق طويلة متسمرا في مكاني شاعرا بذهول ورعب في مزيج غريب لم أشعر به من قبل!!.. و.. قطع حبل أفكاري صوت طرقات قوية على باب الغرفة في الفندق وصوت واثق يقول:

-سيدي.. سيدتي.. افتحوا الباب من فضلكم!!!..

لم أفكر أبدا بهوية ذلك الطارق.. بل توجهت بسرعة شديدة ومن دون تفكير إلى جثة زوجتي لأحملها إلى الحمام وأخفيها في حوض الاستحمام وأغلق عليها الستارة!!.. لأذهب بعدها وأفتح الباب!!.. و.. إنه.. إنه أحد رجال الأمن في الفندق ومعه شرطي!!!!.. ألقيا علي تحية سريعة قبل أن يسألني الشرطي بحذر وبإنجليزية جيدة:

-هل كل شيء على ما يرام يا سيدي؟ ؟!..

رددت عليه بتوتر:

-نعم.. نعم.. كل شيء على ما يرام.. ل.. لماذا تسأل؟!..

نظر إلي الشرطي بشك وهو يقول:

-لقد سمعك بعض نزلاء الفندق تتشاجر مع زوجتك بصوت مرتفع ثم هدأ كل شيء فجأة وبشكل مريب!!.. فهل أنتما بخير؟؟!!..

قلت له بتوتر وارتباك ملحوظ:

-ن.. نعم.. إننا على ما يرام!!..

سألني بسرعة:

-أين زوجتك؟؟؟!!.. نريد الاطمئنان عليها..

اللعين.. كان سؤاله مباغتا فانتفض جسدي بقوة!!.. لأقول له ببطء شديد محاولا إخفاء ارتباكي:

-لقد خرجت زوجتي غاضبة من الغرفة.. ولم تعد حتى الآن..

مط الشرطي شفتيه وهو يقول:

-هل رآها أحد من النزلاء.. أو من موظفي الاستقبال أثناء خروجها؟؟!!..

قلت له بسرعة:

-لا أدري.. إنه فندق كبير.. وقاعة الاستقبال مزدحمة طوال الوقت.. و..

قاطعني بشرود:

-أعلم.. أعلم!!.. حسنا.. أرجو أن تتصل بنا إذا عادت زوجتك.. إليك رقم هاتفي..

ناولني البطاقة الشخصية له والتي تحوي كل أرقامه.. ولو كان مزاجي رائقا لسألته إن كانت البطاقة

تحوي رقم فانلته الداخلية أيضا!!!..

قال لي محذرا قبل خروجه:

-إذا لم تتصل بي صباح الغد لتبلغني بعودة زوجتك فسنعتبرها مفقودة وسنبدأ بالبحث عنها كونها تغيبت أكثر من أربع وعشرين ساعة.. وهي المهلة القانونية المعروفة التي نعتبر فيها الشخص متغيبا ونبدأ بالبحث عنه.

قلت له والقلق يلتهمني التهاما:

-حسنا يا سيدي.. سأفعل هذا!!.. سأتصل بكم في حال تغيبها..

ولم يعد هناك ما يقال.. فتركني الشرطي وحيدا في الغرفة!!.. لأظل بعدها ساعات طوال أفكر بما يجب فعله!!.. أفكر وأفكر بطريقة أخرج فيها من هذا المأزق الرهيب!!.. إلى أن توصلت إلى خطة شنيعة تثير الاشمئزاز إلى أبعد الحدود!!!.. ظللت فترة أفكر مشدوها.. هل.. هل أستطيع تنفيذ خطة كهذه؟ ؟!.. إنها تحتاج إلى دافع خارق للطبيعة لتنفيذها!!!!.. الدافع موجود.. فأنا أحمي حياتي نفسها وأنقذ نفسي من الشرطة.. ما هي الخطة؟؟!!.. سأذهب لأشتري حقيبة جديدة وأضع جثة زوجتي فيها!!!.. ثم آخذ الحقيبة معي في رحلة بالقطار إلى منطقة ريفية.. لأتخلص منها هناك في أحد الأنهار أو البحيرات العديدة التي تشتهر بها (أسبانيا) بعيدا عن أعين الناس!!.. وسأعود بعد ذلك إلى الفندق!!.. هذا هو الحل الوحيد لإخفاء الجثة!!.. ماذا؟!.. تسألونني لماذا تحتاج خطتي إلى دافع خارق للطبيعة لتنفيذها؟!.. لأنه لا بد من تقطيع جسد زوجتي إلى أجزاء تسمح بوضعها في الحقيبة!!!!!.. أعلم جيدا شناعة الفكرة.. سأتقيأ؟ ؟!.. سيغمى علي عدة مرات وأنا أفعل هذا؟ ؟!.. هذه أمور مفروغ منها!!.. أما ما سيحدث في (الكويت) فلن يكون بهذا السوء.. سأقنع أهلها وأهلي عند عودتي بأن زوجتي تركتني واختفت ولا أعلم أين ذهبت!!!.. سألعب دور الزوج المسكين الذي يبحث عن زوجته بقلق وحزن.. سأتصل بالسفارة الكويتية في (أسبانيا) بشكل دائم لمعرفة آخر أخبار التحقيقات في قضية اختفاء زوجتي!!.. سأفعل كل شيء حتى أبتعد تماما عن الشبهات!!.. ولكن.. علي التخلص من الجثة أولا والعودة بعدها إلى (الكويت).. عندها سيهون كل شيء آخر.

خرجت من الغرفة مسرعا حيث كانت الساعة تشير إلى الثالثة عصرا.. وذهبت إلى أقرب محل لبيع الحقائب لأشتري حقيبة ثقيلة بما فيه الكفاية كي تغرق في أي نهر أو بحيرة بعد وضع جسد زوجتي المقطع فيها!!!.. واشتريت منشارا قويا مع أكياس من البلاستيك حتى لا تتسرب الدماء من الحقيبة أو تنبعث منها أي رائحة!!!.. يا لبشاعة ما سأفعله!!!!..

عدت بعدها إلى الفندق لأفعل أشنع ما قد يتخيله إنسان!!!!.. إذ رحت بواسطة المنشار بتقطيع جسد زوجتي إلى أكثر من جزء والدماء تتفجر من كل مكان من جسدها.. ونظرة الموت المخيفة الصامتة تسبب لي هلع ما بعده هلع!!!.. ثم وضعت كل (الأجزاء) في أكياس البلاستيك وأحكمت إغلاقها لأضعها في الحقيبة أخيرا!!!.. طبعا لا داعي لذكر عدد المرات التي تقيأت فيها أو كدت أن أفقد وعيي أثناء هذه الفعلة الشنيعة!!.. فهذه كلها أمور مفروغ منها كما أخبرتكم!!!.

قمت بعدها بعملية تنظيف مجنونة ودقيقة لكل شبر من الغرفة والحمام لأتأكد من محو كل ما قد يدل على قتلي لزوجتي.. كانت عملية مرهقة بحق.. ست ساعات كاملة قضيتها في الغرفة منذ تقطيع أوصال جثة زوجتي وحتى تنظيف الغرفة والحمام!!.. تخيلوا هذا!!.. ولم أنته إلا في حدود العاشرة مساء!!..

جلست أفكر في الخطوة التالية وهي الأهم!!.. كيفية إخراج الحقيبة دون إثارة الشبهات!!.. يجب أن أخرج الحقيبة غدا في فترة الظهيرة وفي ذروة ساعات العمل في الفندق حتى لا ينتبه أحد!!.. ظللت أفكر بقلق شديد محاولا أن أسد أي ثغرة في جريمتي الشنيعة تلك.. قبل أن يطرق أحدهم باب الغرفة مرة أخرى!!!.. وصوت صارم يقول باعتداد:

-افتح الباب يا سيدي!!..

اللعنة!!!.. إنه.. إنه صوت ذلك الشرطي اللعين!!!!.. فتحت له الباب والقلق يسيطر على كل ذرة من جسدي!!.. هل تشك الشرطة بشيء؟!.. لا أعلم!!.. سألت الشرطي باستغراب عن سبب تكرار زيارته وجسدي ينتفض بشكل ملحوظ.. و..

-لقد عدت إليك لأنني شعرت بتوترك الشديد عندما قابلتك ظهر اليوم!!!.. أعتقد أنك فعلت شيئا بزوجتك!!!..

قلت له بصوت مضطرب متخاذل:

-توتري كان أمرا طبيعيا.. لقد نشب شجار حاد بيني وبين زوجتي كما تعلم.. وقد تركتني منذ ذلك الحين.. و..

قاطعني بوقاحة سائلا:

-هل عادت؟!..

قلت له بتوتر:

-لا.. ولم تنقضِ أربع وعشرون ساعة بعد.. كنت سأتصل بكم صباح الغد كما وعدتك إذا لم تعد زوجتي..

هز رأسه متفهما ثم ألقى بقنبلة عندما قال بشرود غير مفهوم وهو يضع ورقة أمام وجهي:

-لقد أخذت إذنا من النيابة بتفتيش غرفتك!!.. هل تسمح لي بالدخول وتفتيش الغرفة؟!..

هنا انفجر بركان القلق في جسدي!!.. وشعرت برعب هائل.. وراحت قدماي ترتجفان قبل أن أسمح له بالدخول مستسلما..

راح يفتش الغرفة بعين خبيرة.. ويفحص كل شيء بعينيه.. قبل أن يتوجه إلى الحمام!!!.. نظرة متفحصة.. اللعنة.. أخشى أن يطلب تفتيش الحقائب.. ولكن.. هل من المعقول أن يستنتج ما فعلته بزوجتي؟!.. لحظات قليلة قبل أن يقول بحسم:

-حسنا يا سيدي.. لم أجد شيئا في الغرفة.. ولكن -وكما طلبت منك-لن تستطيع مغادرة البلد إلى أن نسمح لك.. وإذا لم تعد زوجتك حتى صباح الغد فسأتوقع منك اتصالا لتبلغني بذلك!!.

هززت رأسي موافقا.. ثم تركني بهدوء مغادرا الغرفة.. لأجلس بعدها وحيدا ضائعا تماما لا أعرف كيف سيكون مصيري!!.. لقد ارتكبت جريمة رهيبة.. إنني إنسان سيء حقا.. لم أحترم زوجتي أبدا وكنت أخونها بكل وقاحة رغم أنها لم تقصر معي بأي شيء!!.. وليتني اكتفيت بهذا.. بل فعلت ما قد يعجز عنه أسوأ المجرمين!!.. إنني أحتقر نفسي بشدة!!.

كنت في غرفتي طوال الوقت غارقا في تلك الخواطر منتظرا قدوم صباح اليوم التالي حتى أتخلص من الجثة!!.. كانت ليلة سوداء استيقظت فيها من النوم عدة مرات بسبب الكوابيس.. فكنت في

كل مرة أستيقظ فيها.. أجد نفسي لا شعوريا محدقا بالحقيبة برعب حقيقي!!.. ليس من السهل أبدا أن تنام في غرفة تحوي جثة مقطعة.. حتى لو كانت غرفة في أرقى الفنادق!!!.

و.. جاءت الساعة الموعودة أخيرا!!.. الثانية عشرة ظهرا!!.. يجب أولا الاتصال بذلك الشرطي للإبلاغ عن اختفاء زوجتي بعد مرور 24 ساعة على تغيبها!!.. فاتصلت به بالفعل وأبلغته أن زوجتي لم تعد حتى الآن!!.. ورحت أتحدث بصوت مرتبك عن حبي لها وخوفي أن يكون قد أصابها مكروه وهي في بلد أجنبي.. إلخ من هذا الكلام!!!.. وقام الشرطي بتسجيل كل البيانات وأوصاف زوجتي وأخبرني أن علي أن أزوره في مكتبه من أجل استكمال التحقيق.. ووافقت بالطبع دون تردد لأتوجه بعدها مباشرة إلى مركز الشرطة حيث قاموا بتسجيل قضية.. قضية اختفاء زوجتي!!.. لأخرج بعدها من قسم الشرطة وأعود مسرعا إلى غرفتي في الفندق.. ارتديت ثيابا رياضية خفيفة وخرجت من الغرفة حاملا الحقيبة التي تحوي بقايا زوجتي!!!!.

خرجت من الفندق مترنحا بسبب ثقل الحقيبة محاولا ألا ألفت الأنظار.. قبل أن أوقف سيارة أجرة وأطلب من السائق أخذي إلى محطة القطار.. حيث سأتوجه إلى مدينة ريفية هادئة بعيدة عن صخب المدينة للتخلص من جثة زوجتي في أحد الأنهار.. تماما كما خططت!!.. سأجد هناك وسائل عديدة للتخلص من الحقيبة دون أن ألفت الانتباه!!.

وصلت أخيرا إلى المحطة!!.. ووضعت حقيبتي في مخزن الحقائب في القطار ثم ذهبت لأجلس على أحد المقاعد بجانب النافذة!!!.. التوتر ما زال يسيطر علي ويكاد يقتلني!!!.. يجب أن أكون حذرا.. و...

-مرحبا!!!..

انتفضت بحدة.. والتفت لأرى ذلك الشرطي مجددا!!!.. اللعنة.. إنه.. إنه معي في القطار!!!.. قلت له بقلق هائل بدا واضحا على ملامحي:

-يا لها.. يا لها من صدفة.. م.. م.. ماذا تفعل في القطار؟ ؟!..

نظر إلي بشك وهو يقول:

-إنني ذاهب لزيارة شقيقتي.. ماذا عنك؟ ؟!..

قلت له والقلق يفضحني تماما:

-لم أتمكن من الجلوس في الفندق والانتظار.. إن القلق ينهش قلبي.. فتركت رسالة مع موظف الاستقبال أخبر فيها زوجتي -في حال عودتها- أنني سأعود ظهر الغد.. لقد أردت الخروج قليلا والابتعاد عن زحمة العاصمة يوما واحدا أو يومين على أبعد تقدير!!..

سكت دون رد.. ولم يجد اللعين أي مكان للجلوس سوى بجانبي رغم العديد من الكراسي الخالية!!!.. إن هذا الوغد سيكشف الأمر!!.

مضت ساعة على زمن الرحلة كان الشرطي يتحدث فيها عن أمور بعيدة تماما عن قضية اختفاء زوجتي.. فراح يتحدث عن (أسبانيا) وعن الطبيعة الخلابة في بلده!!.. إلى أن غير دفة الحديث فجأة بكلام مباغت لم أتوقعه إطلاقا!!!!.. وذلك عندما قال لي بسرعة وكأنه يخشى مقاطعتي لحديثه:

-سوف تجد الشرطة بانتظارك عند ثاني محطة نتوقف عندها.. وسنقوم هناك بتفتيش حقيبتك..

أعتقد أنك تخفي شيئا بداخلها!!.. إنني في الواقع أتبعك منذ خروجك من الفندق!!.. وقد اتصلت بزملائي الشرطة في تلك المدينة ليقوموا بتفتيش حقيبتك حالما يصل القطار إلى محطته الثانية!!..

بالطبع صعقت تماما عند هذا الكلام ولم أرد إطلاقا.. قبل أن أتمالك نفسي وأتحدث بصوت متحشرج:

-أنت.. أنت مخ.. مخطئ.. يا سيدي.. أنا لم.. لم أفعل أي شيء بزوجتي.. إنني أحبها ولا يمكن أن أقتلها إن كان هذا ما تلمح إليه!!..

ثم نهضت من الكرسي قائلا بتلعثم واضح:

-إنك تضايقني بهذا الكلام.. أرجوك دعني وشأني.. لا يوجد سبب يجعلني أتبادل أطراف الحديث معك!!..

لم يرد على كلامي.. بل ابتسم بهدوء وهو يراني مغادرا الكرسي.. وعندما ابتعدت عنه قليلا ودخلت إلى مقطورة أخرى من القطار!!.. هرعت مسرعا إلى مخزن الحقائب.. الدخول إلى المخزن ممنوع وقت سير القطار.. لكن الأمر ليس صعبا.. إن الإجراءات الأمنية في القطار تقل كثيرا عن مثيلتها في الطائرات دون شك.

دخلت إلى مخزن الحقائب باحثا عن الحقيبة.. فوجدتها بعد بحث استغرق بضع دقائق فحسب.. يجب أن أفعل شيئا.. إنني أمام مصيبة.. بل كارثة.. مهلا.. مهلا!!.. قطع حبل تفكيري وجود شيء لا يصدق.. إنه أمر بالغ الغرابة.. إن هذا قد يعني نجاتي!!!.. فقد.. فقد رأيت حقيبة تشبه حقيبتي تماما!!!.. إنها هدية من السماء.. هدية لا تصدق!!.. ارتفعت معنوياتي كثيرا!!.. هناك حل.. حتما هناك حل!!.. نعم.. نعم.. لا يوجد سوى هذا!!.. إنها فكرة جيدة.. سأفتح باب مخزن الحقائب لأتخلص من الحقيبة التي تحوي جثة زوجتي!!.. سأتخلص من الحقيبة وأدعي أن الحقيبة الأخرى هي حقيبتي!!.. إنها فكرة رائعة!!!.

اتخذت قراري.. خاصة عندما انتبهت إلى أن القطار سيعبر أحد الأنهار بعد دقيقتين على الأكثر!!!.. لا يجب أن أضيع هذه الفرصة أبدا!!.. فتحت باب القطار.. الهواء عنيف جدا يكاد أن يدفعني أو يجذبني إلى الخارج.. لا أعلم.. لكنني نجحت في دفع الحقيبة خارج القطار بصعوبة بالغة!!!.. و.. أخيرا.. أرى الحقيبة تسقط في قلب النهر!!.. لا شك أنها ستقبع في أسفل النهر ولن يجدها أحد بسبب وزنها الثقيل!!.. هذا رائع.. رائع!!.

عدت بعدها بحذر شديد إلى أحد المقاعد في مقطورة بعيدة عن ذلك الشرطي.. جلست وقد تنفست الصعداء بعد أن تخلصت من الجثة!!.. سأقضي بضع ساعات في تلك المدينة الريفية ثم أعود إلى العاصمة.. وسأغادر إلى (الكويت) بعد بضعة أيام حتى لا يشك أحد من أهل زوجتي أو أهلي!!.. سأعود إلى (الكويت) محطما حزينا بائسا وسأبلغ وزارة الخارجية أن تتابع قضية اختفاء زوجتي في (أسبانيا)!!.. ستسير الأمور على ما يرام!!.

هذا ما ظللت أقوله لنفسي قبل وصول القطار إلى محطته الثانية!!.. ليدخل إلى المقطورة فور توقف القطار بضعة رجال من الشرطة وعلى ملامحهم علامات الخطورة.. يتقدمهم ذلك الشرطي الوغد بابتسامته الهادئة التي بدأت تثير حنقي بالفعل!!.. فأمر جميع الركاب بالخروج وعدم أخذ حقائبهم إلا بعد أن يأذن لهم.. لأبقى وحيدا في القطار مع رجال الشرطة.. عندها فقط قال

الشرطي بانتصار:

-ستذهب معنا الآن لتفتح حقيبتك..

رددت عليه بشيء من الثقة:

-حسنا!!.. فلا يوجد لدي ما أخشاه.

نهضت معه ليقودني مع شرطي آخر إلى كابينة الحقائب.. وهناك توجهت بثقة إلى الحقيبة التي تشبه حقيبتي.. ثم تذكرت أمرا هاما جعلني أتوتر قليلا:

-لقد.. لقد أضعت المفتاح..

بالطبع.. فأنا لا أملك مفتاحا أصلا لتلك الحقيبة!!.. رحت بعدها بحركة تمثيلية أفتش في جيوبي باحثا عن المفتاح دون أن أجده بالطبع.. فأشار الشرطي إلى زميله ليفتح الحقيبة بأساليب الشرطة الخاصة.. لم يتطلب الأمر سوى دقائق قليلة قبل أن يفتح الحقيبة لأرى أكبر مفاجأة رأيتها في حياتي!!!.. مفاجأة شلت تفكيري!!!.. وصعقتني وجعلت قلبي يخفق بقوة!!!.. لقد رأيت في الحقيبة جثة مقطعة غارقة بالدماء!!.. جثة تم تقطيعها بمنشار!!!!!!.. نعم.. جثة زوجتي!!!. أقسم لكم بأنني عجزت عن التفوه بحرف واحد بسبب قوة الصدمة!!!.. هل.. هل تخلصت من الحقيبة الخطأ؟؟؟!!.. لا.. هذا مستحيل.. مستحيل!!!.. أنا لم أتخلص من الحقيبة الخطأ على الإطلاق!!!.. وقبل أن أعي ما يحدث.. هجم علي رجال الشرطة واعتقلوني!!.. ليجروني بعدها جرا خارج مخزن الحقائب ويدخلوني عنوة إلى سيارة الشرطة.. كنت أنظر إلى الجميع دون فهم!!.. و.. لن أتحدث عن إخبار الأهل والأقارب في (الكويت) عما حدث لي.. وعن توكيلهم لمحام للترافع عني!!.. فقد حدث كل شيء بسرعة مذهلة!!.. وكانت التهمة: قتل زوجتي بالطبع!!.. رحت أقسم وأقسم بأنني لا أعرف شيئا عن أي شيء!!.. لكن أحدا لم يصدقني!!.. كل الدلائل تشير إلى أنني قاتل.. وأنا أعرف أنني قاتل!!.. ولكن ما لم أفهمه كيفية تواجد جثة زوجتي في تلك الحقيبة؟ ؟!.. ماذا كان يوجد في الحقيبة التي ألقيت بها في النهر إذا؟؟!!.. لا يمكن أن أكون قد ألقيت بالحقيبة الخطأ.. أنا واثق من هذا.. كدت أن أصاب بالجنون!!.. حاولت الإنكار.. لكن هذا لم يكن مفيدا على الإطلاق أمام كل هذه الدلائل!!!.. فحكمت المحكمة بعد شهرين من بدء القضية بالسجن المؤبد.. عشرون عاما كاملة!!!.. مما سيعني نهاية حياتي دون شك!!.. وبالطبع لم تتدخل وزارة الخارجية في (الكويت) لإنقاذ رجل قتل زوجته وقطع جسدها بهذه الوحشية محاولا إخفاء جريمته!!.

ومع مرور الأيام بدأت أصدق فعليا أنني ألقيت بالحقيبة الخطأ.. هذا هو التفسير الوحيد.. أحيانا كثيرة نكون واثقين أننا على صواب لنفاجأ بأننا ارتكبنا خطأ فادحا.. ظللت أوهم نفسي بأنني كنت أحمقا وألقيت بالحقيبة الخطأ.. إلى أن اتضحت الحقيقة!!!.

كان هذا بعد شهر من وجودي في السجن عندما جاءني زائر بصفة غير رسمية!!.. نعم.. إنه ذلك الشرطي اللعين!!.. حيث أخبرني بأكبر مفاجأة قد يسمعها إنسان في حياته!!!.. مفاجأة مفرحة في واقع الأمر كانت تعني خلاصي أيضا!!!.. لن تصدقوا أبدا ما سأخبركم به!!!.

جاءني ذلك الشرطي مبتسما بصورة ودية وهو يقول:

-مرحبا.. كيف حالك يا عزيزي؟ ؟!..

نظرت إليه بغل شديد وقلت له وأنا أضغط على أسناني:

-ماذا تريد أيها الوغد؟ ؟!..

قال متجاهلا تلك الإهانة:

-لقد كنت في زيارة لأحد زملائي من المسؤولين في السجن.. فطلبت منه أن أراك.. بشكل غير رسمي بالطبع!!.. لذا فلن يستمع أحد أو يعرف بأمر هذا اللقاء..

غمغمت بكلام لم أفهمه أنا شخصيا!!.. فأكمل كلامه بطريقة ودية أثارت استغرابي:

-لا شك أنك عشت لغزا لم تجد له حلا أبدا.. فكيف جاءت جثة زوجتك إلى الحقيبة الأخرى؟!.. لا شك أنك كنت واثقا من إلقائك بالحقيبة الصحيحة.. فأمور كهذه لا يخطئ فيها أحد.. حتى أغبى القتلة!!..

انتفضت بشدة عند كلامه هذا!!.. وقبل أن أنطق بأي حرف.. قال بهدوء شديد:

-سأخبرك بالقصة كاملة.. وسأعرض عليك الخلاص من السجن إن أردت!!.

اتسعت عيناي بذهول أمام هذا الكلام.. هل.. هل هناك أمل بالفعل في خروجي من هنا والعودة إلى وطني؟ ؟!.. وقبل أن أسأله.. قال بصدق:

-أرجوك ألا تصرخ عند سماعك لما سأقول.. لأن أحدا لن يصدقك!!.. فقط استمع إلي بهدوء ونفذ ما سأقوله لك وأعدك بالخروج من السجن خلال أسبوعين من الآن أو ربما أقل!!..

سكت قليلا أمام نظراتي المذهولة ثم استعد لإلقاء قنبلة!!.. و..:

-حسنا.. إن الجثة التي رأيتها في الحقيبة الأخرى كانت لزوجتي أنا.. وليست لزوجتك!!!!..

كان وقع كلامه علي كوقع انفجار قنبلة داخلية في جسدي!!!.. فقد تفجرت ملامحي ذهولا وحدقت بوجهه بعينين متسعتين عاجزا عن التفوه بحرف!!!.. ابتسم لتأثير كلامه علي وكأنه يهنئ نفسه على عبقريته!!.. ثم قال بهدوء:

-إنني إنسان قوي الملاحظة إلى درجة لا تصدق.. ربما هي الخبرة وربما هي الموهبة.. المهم.. عندما قمت بزيارتك في الفندق في المرة الثانية.. وجدت عندك حقيبة بدت لي جديدة للغاية وكأنك ابتعتها للتو.. وقد أثار هذا اهتمامي كثيرا.. فلماذا تشتري حقيبة جديدة بعد شجارك مع زوجتك ومن ثم رحيلها كما تدعي!!.. لقد سألت موظفي الاستقبال وأخبروني أنهم شاهدوك بالفعل تحمل تلك الحقيبة الجديدة متجها بها إلى الغرفة رغم أنك كنت تموت قلقا على زوجتك كما تدعي.. فلا يعقل أن يكون مزاجك رائقا للخروج وشراء تلك الحقيبة!!.. كما أنني وجدت الغرفة نظيفة تماما في زيارتي الثانية رغم أن أحدا من موظفي خدمة الغرف في الفندق لم يدخلها للتنظيف!!.. لقد سألتهم بنفسي وعرفت هذا منهم!!.. لم يحتج الأمر لعبقرية كي أعرف أنك قمت بنفسك بتنظيف غرفتك لإخفاء معالم جريمة!!.. كما أن النزلاء قد تحدثوا عن شجاركما بصوت مرتفع ثم الصمت المفاجئ المريب.. وهو ما يوحي بحدوث شيء غير عادي أثناء الشجار!!.. فلا أحد يخرس فجأة وسط الشجار إلا إذا أخرسه أحدهم بالقوة!!.. والأهم من كل هذا عدم وجود دليل إطلاقا على خروج زوجتك من الغرفة!!.

سكت قليلا وهو يرى تأثير كلامه علي.. وأنا أحدق به باستهبال غير مقصود.. ليضحك قائلا بهمس:

-فلو جمعنا كل هذه النقاط.. سنتوصل بسهولة إلى أنك قتلت زوجتك وأخفيت جثتها في تلك

الحقيبة الجديدة!!..

ثم أكمل بجدية قائلا:

-عندها فقط واتتني تلك الفكرة العبقرية!!.. فأنا أخطط منذ مدة طويلة لقتل زوجتي!!.. كانت تستحق هذا.. صدقني.. إنها امرأة غنية جدا سيئة الأخلاق متسلطة حقيرة كانت سببا مباشرا في موت والدتي عندما دفعتها بقوة ذات يوم بسبب شجار عائلي بسيط.. فأصيبت والدتي بأزمة قلبية وتوفيت!!!.. لكني لم أبلغ الشرطة لأنني أعرف أن زوجتي تملك عشرات المحامين الذين يستطيعون إخراجها من تلك القضية بسهولة!!.. فقررت بعد أيام طويلة من التفكير أن أقتل زوجتي!!.. كنت أفكر بالطريقة المناسبة لقتلها والحصول على أموالها.. ومن ثم الهرب إلى (البرازيل) حيث لا توجد أي اتفاقيات دولية للقبض على المجرمين الهاربين.. لكن.. المشكلة أنني كنت أفكر بالخطة المناسبة.. والفرصة المناسبة أيضا!!.. وقد جاءت الفرصة والخطة في نفس الوقت على طبق من ذهب.. وذلك عندما تابعت قضية اختفاء زوجتك واستنتجت قتلك لها ووضع جثتها في تلك الحقيبة.

توقف عن الكلام ليلتقط أنفاسه.. أما أنا فقد توقفت أنفاسي تماما وأنا أنظر إليه.. ليردف بعدها قائلا:

-كنت أعرف أنك ستخرج من الفندق في اليوم التالي.. فلا يمكن أن تخرج في وقت متأخر من الليل حاملا تلك الحقيبة الثقيلة لأن الأمر سيثير شكوك موظفي الاستقبال.. لذا فقد تركتك وهرعت مسرعا لشراء حقيبة تشبه حقيبتك تماما!!.. وذهبت إلى البيت لأقتل زوجتي!!.. لم يكن الأمر عسيرا لأنني مستعد نفسيا وذهنيا لهذا الأمر منذ زمن.. و.. قمت بعدها بتقطيع جسدها.. ومن ثم وضعتها في الحقيبة بعد لفها بأكياس من البلاستيك.. لم أنم ليلتها.. بل ذهبت إلى الفندق وانتظرتك حتى تخرج.. وعندما خرجت إلى محطة القطار حاملا تلك الحقيبة.. تبعتك إلى المحطة ووضعت الحقيبة التي تحوي جثة زوجتي بمكان يسمح لك برؤيتها إذا ما دخلت إلى مخزن الحقائب.. إذ كنت واثقا أنك ستأتي إلى هنا للتخلص من حقيبتك بعد أن أخبرك أن رجال الشرطة سيلقون القبض عليك عندما يصل القطار إلى محطته الثانية!!.. وعندما قمت أنت بالتخلص من حقيبة زوجتك لم يتبقَ سوى الحقيبة الأخرى التي تحوي جثة زوجتي!!.. وهي تلك التي ادعيت أنها تخصك!!.. وبالطبع كانت الحقيبة غارقة في الدماء.. فلم تتمكن أبدا من رؤية ملامح وجه الجثة فظننت أنها جثة زوجتك!!.. وقد تتساءل عن كيفية عجز الطبيب الشرعي عن كشف الحقيقة!!.. السبب أن كبير الأطباء الشرعيين لدينا من أفضل أصدقائي.. وقد عرضت عليه مبلغ خمسة ملايين دولار مقابل مساعدتي ومن ثم الهرب معي إلى (البرازيل).. كنت أحتاج إلى قتل زوجتي واتهام شخص آخر بذلك حتى أرث كل شيء.. وأبيع كل ما تملكه والذي يقدر بعشرات الملايين.. ومن ثم الهجرة إلى (البرازيل)..

سكت أخيرا.. سكت وسط ذهولي.. ثم وجدت نفسي أسأله بعينين متسعتين:

-لماذا؟!.. لماذا تخبرني بكل هذا الآن؟!..

مط شفتيه وهو يقول:

-إنني لست إنسانا شريرا.. ولا أريد أن تقضي حياتك في السجن متلبسا بقضية أقحمتك أنا فيها.. أعلم أنك مذنب.. وأعلم أنك قتلت زوجتك.. ولكن قتلك لها كان في ثورة غضب كما هو واضح.. وبصراحة.. أعتقد أن ما تعرضت له من عذاب نفسي وتأنيب ضمير هو عقاب كافٍ!!..

زفر بقوة وهو يقول:

-على كل حال.. تستطيع أن تكشف كل شيء الآن وتطلب من القضاء أن يفتح ملف القضية مرة أخرى ليستخرجوا الجثة حتى يتم فحصها.. سيعرفون أنها ليست زوجتك وسيكون هذا كافيا لإخراجك من السجن.. خاصة أنك لم تعترف حتى الآن بقتل زوجتك.. فقط اطلب منهم أن يفتحوا ملف القضية مرة أخرى بعد المعلومات التي أخبرتك بها.. أخبرهم كل ما أخبرتك به ولا تخش شيئا.. فخلال ساعتين فحسب.. سأكون في الطائرة.. ولن تصدق الشرطة قصتك إلا بعد يوم أو يومين من الآن أكون خلالها قد غادرت البلد ووصلت إلى وجهتي مع صديقي الطبيب الشرعي.

ظللت أحدق به مشدوها غير مصدق ما رواه لي!!.. لا يمكن أن أصدق أن هناك جريمة عبقرية تتم بهذا الذكاء!!!.. هل عرفتم من قبل قاتلا بهذه العبقرية؟؟!!.

قلت له بذهول وقد تذكرت أمرا هاما:

-ولكن!!.. كيف عرفت أنني سأذهب إلى خزينة الحقائب لأتخلص من الحقيبة؟!.. فلو لم أفعل هذا لأصبحت أنت في ورطة.. فلن تتمكن من تلفيق تهمة قتل زوجتك لأحد!!..

رد علي ببساطة:

- في هذه الحالة كان سيتم اتهامك بالجريمتين!!.. وإذا عرفوا أنك قتلت زوجتك.. فلن يكون اتهامك بقتل زوجتي أيضا أمرا عسيرا.. ربما ستنجو من تهمة قتل زوجتي بعد التحقيقات.. ولكن هذا سيتطلب أسابيع وربما شهورا تكفيني لإدارة شركات زوجتي حتى أجني منها ما أمكن من مال مع بيع كل مجوهراتها ومن ثم الهرب.. وبعدها كنت سأرسل رسالة إلى الشرطة بعد هروبي إلى (البرازيل) لأخبرهم بأنني لفقت تهمة قتلك لزوجتي.

زفر بارتياح وهو يقول:

- كما ترى.. لقد وضعت حلا مناسبا لكل سيناريو.. وعلى كل حال.. الأمر بيدك الآن.. تستطيع الاعتراف بما حدث بخصوص قتلك لزوجتك.. وتقضي عقوبة سجن يعلم الله مداها.. أو تنكر أنك تعرف أي شيء عن اختفائها وتخبرهم أن الجثة التي وجدناها معك لم تكن لزوجتك.. فتخرج من السجن نهائيا بعد أن تتم تبرئتك.. فلا تنسَ أنهم لم يعثروا على جثة زوجتك التي أعتقد أنك ألقيت بها في النهر.. لذا فسيستحيل اتهامك بقتلها إذا لم يعثروا على الجثة.. بدون جثة.. لا توجد جريمة أصلا.

قال هذا وتركني مودعا.. وأنا ما زلت مشدوها غير مصدق أن هناك عقلا يستطيع تلفيق جريمة بهذه البراعة!!.. و.. حدث ما أخبرني به الشرطي تماما.. فقد أبلغت الشرطة بما حدث لكن أحدا لم يصدقني إلا بعد ثلاثة أيام تقريبا.. ليقوموا بعدها بفتح ملف القضية مرة أخرى.. وتأكدوا بالفعل أن الجثة التي تم دفنها هي جثة زوجة الشرطي وليست زوجتي!!.. ومع اختفاء الشرطي وصديقه الطبيب الشرعي.. تأكد القضاء من براءتي.. فتم صدور حكم بالعفو الشامل عني.. وظلت قضية اختفاء زوجتي مفتوحة على مصراعيها دون أن يعرف أحد أي شيء عن ملابساتها.. لأعود بعدها إلى (الكويت) حيث وجدت استقبالا حافلا من الأهل والأقارب يشوبه بعض القلق بسبب اختفاء زوجتي!!.. أما أنا فكنت حزينا بائسا أشعر بغصة في حلقي وتأنيب ضمير لا حد له بسبب فعلتي الشنيعة.. لقد قتلت زوجتي وقطعت جسدها!!.. لا أصدق أنني فعلت شيئا كهذا!!!.

إلا أن أفضل ما في الأمر أنني تعلمت دروسا عديدة لن أنساها أبدا من تلك التجربة!!.. تعلمت أن أحترم الإنسان ولا أدري كيف يرتبط هذا بقصتي.. وتعلمت حب الخير للناس أجمعين.. والأهم أنني تعلمت درسا لا ينسى بعدم التلاعب بمشاعر الفتيات البريئات.. لقد أصبحت إنسانا أفضل.. وإن كان ما فعلته بزوجتي كابوسا ظل يطاردني وسيظل يطاردني إلى الأبد.. وبالطبع أصبحت قريبا جدا من أهل زوجتي.. فأتواصل معهم دائما وأسأل عنهم وألبي كل احتياجاتهم كنوع من الإحساس بالذنب.. إنني أطلب من الله سبحانه وتعالى طوال الوقت أن يسامحني على ما اقترفته من إثم.. وقد أقسمت أن أهب نفسي لخدمة أهل زوجتي علني أكفر عن ذنبي العظيم.. خاصة أنني أراهم يتعذبون يوميا ويأملون بعودة ابنتهم التي لا يعلم أحد سواي أنها لن تعود.. لن تعود أبدا.

لغز هذا الفتى

لن يتوقف (طالب) أبدا عن إبهاري.. ولن يصدقني أحد لو تحدثت عنه!!.. فهذا الفتى لغز.. لغز حقيقي!!.. إنه متفوق إلى درجة تثير الحسد ويبدو لي أحيانا كثيرة وكأنه قد قرأ ودرس المنهج الدراسي كله أكثر من ثلاثين مرة قبل بداية السنة الدراسية!!.. وهذا من دون أي مبالغة!!.. إنه يملك ذاكرة مخيفة.. فلا يمكن أن تفوته أي شاردة أو واردة!!.. وربما هذا قد لا يثير تساؤلاتك!!.. ولكنك ستعجب دون شك لو ذكرت لك أنه من اللاعبين المميزين في فريق المدرسة لكرة القدم وفي العديد من الألعاب الرياضية الأخرى!!.. إذ يملك سرعة بديهة غير معقولة ويقوم بأساليب رائعة في المراوغة في لعبة كرة القدم وكرة السلة وكرة اليد وتنس الطاولة وألعاب أخرى أعرف أنه يجيدها إلى درجة الاحتراف!!.

إن مستقبلا باهرا ينتظر هذا الفتى دون أدنى شك.. وربما كل الأمور التي ذكرتها لم تكن غريبة بقدر ما حدث في ذلك اليوم أثناء الاختبارات الفصلية.. حين تعرض ل(طالب) ثلاثة من الأوغاد خارج أسوار المدرسة لأنه رفض مساعدتهم في أحد الاختبارات.. أي أنه رفض مساعدتهم على الغش!!!!.. وهذا السيناريو يتكرر بالطبع بشكل دائم في جميع المدارس الحكومية تقريبا.. الطريف في الأمر أنهم تعرضوا له أثناء عودته إلى البيت في مكان منعزل.. والأكثر طرافة من ذلك أنه خرج من هذا الشجار سليما معافى دون أن يلمسه أحد منهم.. بينما ترك الفتيان الثلاثة خلفه يئنون على الأرض من فرط الألم!!.. كيف فعل هذا؟!.. لا أعلم!!.. أنا أكره معظم أفلام الحركة -أو الأكشن كما نطلق عليها -بسبب لا معقولية أحداثها.. خاصة حين يقوم البطل بضرب عشرة أو ربما عشرين من الأشرار في آن واحد!!.. لكنني هنا عشت أحد أفلام (الأكشن) واقعا صريحا مع (طالب)!!.. بالطبع لم أشاهد ما حدث في الشجار.. لكن أمورا كتلك تنتشر بسرعة بين طلبة المدارس!!.

وقد قام الأولاد الثلاثة بتقديم بلاغ للمخفر يتهمون فيه (طالب) بالاعتداء عليهم وضربهم!!!!.. لكنه أنكر كل شيء!!.. وبالطبع أخذ المحقق بكلامه!!!.. فكيف لأحد أن يصدق أن شخصا واحدا يقوم بضرب ثلاثة أولاد بهذه الصورة دون أن يصاب هو بخدش واحد؟!.. خاصة أن البنية الجسمانية ل(طالب) عادية جدا.. ألم أقل لكم إن (طالب) هذا لغز؟ !!.. إنه يبدو لي وكأنه سوبرمان بشري.. سوبرمان حقيقي!!.. ولم أكن لأستغرب يوما لو رأيته يطير مثلما يفعل سوبرمان في القصص الهزلية!!!.

ورغم كل هذا التدليل الذي تمنحه الحياة ل(طالب) إلا أنه كان فتى مؤدبا.. متواضعا جدا.. ومبتسما طوال الوقت تقريبا وكأنه لا يعاني من أي مشاكل.. كيف يعاني من أي مشاكل من هو متفوق في دراسته إلى هذا الحد المذهل ومن يجيد كل الألعاب الرياضية تقريبا إلى درجة الاحتراف ومن بهذه الشجاعة والقوة الجسدية؟؟!.

وهذا ما جعله من أكثر الأولاد شعبية في المدرسة بطبيعة الحال.. ولحسن حظي.. توطدت أواصر الصداقة بيننا يوما بعد يوم.. خاصة عندما أصبح زميلي في الفصل!!.. فكانت اللحظات التي نقضيها في المدرسة معا ممتعة جدا.. بل وامتدت صداقتنا إلى خارج أسوار المدرسة!!.. فكنت أزوره أحيانا كثيرة في بيته.. أو نخرج معا إلى السينما أو لتناول العشاء أحيانا أخرى!!.. ولم يفتني أبدا أن أنتبه إلى أنه مثقف إلى درجة تثير التساؤلات وتفجر كل علامات الاستفهام!!.. أذكر أنه

تحدث معي ذات مرة عن اقتصاد (بوركينا فاسو) بأدق التفاصيل!!!!.. بينما هناك من لا يعرفون إن كانت هناك دولة بهذا الاسم أصلا!!.

سألته ذات مرة -وكانت هي المرة الوحيدة التي أسأله فيها هذا السؤال-عن اللغز المحيط به!!.. سألته كيف تمكن وحده من ضرب ثلاثة فتيان تعرضوا له وعن ثقافته وتفوقه الدراسي و.. إلخ من (القوى الخارقة) التي يمتلكها إن صح التعبير.. كنت أتوقع منه ردا من طراز: أقرأ كثيرا.. أمارس تمارين رياضية معينة.. أذاكر باستمرار!!.. لكنه في المقابل لم يقل شيئا من هذا.. كل ما فعله الابتسام بحرج.. ثم مط شفتيه وهو يقول:

-صدقني.. لو كنت أعرف الجواب لأخبرتك به!!.

استمرت علاقتنا شهورا طويلة.. حتى جاء ذلك اليوم الحزين عندما جاءني (طالب) إلى البيت والدموع تملأ عينيه!!.. صعقت لهذا!!.. لقد ظننت فترة أن عيون هذا الولد لا تملك قنوات دمعية.. لأن شخصا كهذا لا يمكن أن يبكي.. لكنه جاء منهارا باكيا والدموع تملأ عينيه بالفعل!!!.. جزعت كثيرا!!.. فلأول مرة أراه في هذه الصورة!!.. فأخذته إلى غرفتي حتى نستطيع أن نتحدث دون لفت انتباه أحد.. ولحسن الحظ كان والداي وشقيقي في الخارج.. و..

-(طالب).. ما بك يا صديقي؟!..

فقال آخر شيء أتوقعه:

-سأموت.. سأموت قريبا!!!

لم أستطع أن أرد من هول المفاجأة!!.. فقط فتحت فمي لا شعوريا وأنا أنظر إليه ببلاهة.. فأردف قائلا بصوت باك:

- إنني مصاب بورم خبيث.. وفرصة نجاتي منه ضئيلة جدا!!.. إن أمامي شهرين على أفضل تقدير!!.. شهرين مع بعض الحظ!!.. لا أعلم كيف حدث هذا.. لقد كان ورما خبيثا انتشر بسرعة رهيبة وفاجأ الجميع!!.

لم أستطع أن أقول شيئا.. كل ما فعلته أنني احتضنته بشدة.. وبدأت دموعي تنهمر.. هذا الصديق العزيز الذي أعتبره بمثابة أخي.. يا إلهي.. لا يمكن أن أخسر أفضل أصدقائي.. إنه في السادسة عشرة من العمر فحسب!!.. هل يعقل أن يصاب شخص في مثل سنه بورم سرطاني؟!.. لا أعرف الكثير عن الأورام السرطانية!!.. لكن أشعر أن هذا ليس عدلا!!.. و.. لن أطيل في شرح الأحزان والآلام التي عشتها معه لحظة بلحظة.. فكل مريض بالسرطان يفقد شعره تماما بسبب المعالجة الكيميائية.. وينزل وزنه إلى النصف دون أي مبالغة!!.. أصعب شيء في هذا العالم أن ترى إنسانا يموت أمامك لحظة بلحظة.. خاصة إن كان مقربا جدا إليك!!.

وجاء اليوم الذي كنت أخشاه حين لفظ (طالب) أنفاسه الأخيرة أمام والديه و.. أمامي!!!.. ما زلت أذكر ذلك اليوم المشؤوم.. لن يمحا من ذاكرتي أبد.. لكن القصة لم تنتهِ عند هذا الحد.. بل حدث تطور سريع بعد ذلك.. تطور هائل ربما هو أهم جزء في قصتنا!!!.

فبعد وفاة (طالب) بأسبوع تقريبا.. جاء ضيف إلى منزلي.. من هو؟ !!.. إنه والد (طالب)!!.. وهو عجوز في أواخر الستين من العمر.. حالته الصحية ليست على ما يرام.. بالطبع كانت الزيارة مفاجئة جدا!!.. إلا أنني تمالكت نفسي ودعوته للدخول، لكنه طلب مني الركوب معه في سيارته!!.. ركبت معه متسائلا باستغراب شديد عما سيقوله لي!!!.

أخذني معه إلى أحد الشوارع الداخلية الخالية تماما من المارة.. ثم..:

-ولدي العزيز.. أعرف أنك أقرب أصدقاء (طالب) رحمه الله.. لذا سأقدم لك هذه الهدية!!..

ثم أعطاني قنينة زجاجية صغيرة بحجم الأصبع!!.. كانت تحوي مادة سائلة مشعة بنفسجية اللون!!.. لم أر مثلها من قبل.. وقبل أن أسأله عن فحواها.. قال لي بسرعة:

- لا أعرف كيف أخبرك بذلك ولا أعرف إن كنت ستصدقني.. ولكن كل الدلائل ستكون في صالحي.. أعتقد أنك ستصدقني في النهاية يا ولدي!!.

لم أنطق بحرف.. بل نظرت إليه بلهفة منتظرا منه مواصلة الحديث.. و..:

- بدأ كل شيء عام 1967 عندما تعرضت لحادث سير مروع كان سيودي بحياتي!!.. ولكن تم إنقاذي بمعجزة!!.. فظللت في المستشفى قرابة الشهرين!!.. وطوال تلك الفترة لم يخرج عن ذهني أمر واحد!!.. تلك اللحظات القليلة التي ظننت فيها أنني سأفقد حياتي!!!.. ففي ثوان قليلة جدا.. مر علي شريط حياتي بأكمله أمامي!!!.. أقسم لك بأنني تذكرت كل كتاب قرأته وكل فيلم شاهدته.. كل يوم ذهبت فيه إلى العمل!!!... إلخ.. كان أمرا غريبا لا يصدق.. فقد اختصر عقلي عامل الزمن كله في ثوان قليلة!!!.. وكون أنني دكتور في (جراحة المخ) كما لا بد وأن (طالب) قد أخبرك.. فقد فجر هذا الحادث خيالي!!!.. وجعل فكرة مجنونة تلح على عقلي!!.. وهي أنه من الممكن تسريع العقل البشري ملايين المرات في ظروف خاصة جدا شبيهة بالظرف الذي تعرضت إليه!!!!.. فالعقل البشري يستطيع أن يفوق أي عقل إلكتروني بسرعة الاستيعاب إذا ما توفرت الظروف اللازمة لذلك.. تماما كما حدث معي!!.

سكت قليلا وسط أنفاسي المبهورة.. ثم أردف قائلا:

-هنا طرحت على نفسي هذا السؤال: ماذا لو تم تسريع العقل البشري؟ !!.. ماذا لو تم اختراع دواء يستخدم لتسريع العقل؟؟!!.. سيكون عقل الطيار الحربي -على سبيل المثال-سريع وحاضر البديهة إلى حد لا يصدق.. وستكون ردة فعله مذهلة في تعامله مع ظروف القتال.. وماذا سيحدث لو قمنا بتسريع عقل الإنسان العادي؟؟!!.. سيكون بمقدوره عندئذ أن يقرأ كتابا ضخما في عشر دقائق!!!.. فلن تستغرق منك قراءة الصفحة وحفظها أكثر من 3 ثوان أو أكثر قليلا بسبب سرعة عقلك الرهيبة في استيعاب ما تقرأه!!.. إن اكتشاف كهذا كان يتطلب مني اكتشاف الباب السري لعقل الإنسان!!..

سكت مرة أخرى ليرى تأثير كلامه علي قبل أن يقول:

- كانت الفكرة جنونية بالفعل.. لكني كنت عازما على تحقيقها.. إذ شعرت بأنني سأقدم الخير للبشرية.. فاكتشاف كهذا سيقفز بالإنسان خمسين عاما للأمام دفعة واحدة في العلوم والتكنولوجيا والكفاءة!!.. فكانت أول خطوة قمت بها هي الحديث مع ناجين من موت محقق!!!.. وكان هذا سهلا، فقد تحدثت مع الكثير من الناجين من عمليات جراحية خطرة في مقر عملي في المستشفى.. وجميعهم أخبروني بنفس ما حدث لي تقريبا!!!.. و.. بعد تجارب كثيرة استغرقت مني 20 عاما تقريبا أو أكثر!!!.. تمكنت من اختراع مادة كيميائية محفزة للعقل!!.. وتلك المادة تعمل على تسريع عقل الإنسان إلى عشرين ضعفا!!!!.. ولكن كانت هناك ثغرة لم أضعها في الحسبان.. فالإنسان الذي تكون ردة فعله عشرين مرة أسرع من الإنسان العادي.. سيرى ردود أفعال الناس بطيئة جدا!!.. فلو تواجد في شجار مثلا.. سيكون من السهل عليه أن يهزم أي

عدد من المتشاجرين.. لأنه سيرى ردود أفعال خصومه بطيئة ومملة وكأنه يشاهد شريط فيديو بالحركة البطيئة!!!.. سيتمكن من رؤية ردود أفعال الجميع بسرعة مدهشة وسيتخذ الوضع المناسب لتفادي ضرباتهم بكل سهولة وبمتسع من الوقت!!!.. وبالطبع لا يخفى عليك أنه سينهي قراءة أي كتاب بكفاءة أكثر بعشرين مرة من الإنسان العادي!!.. فلو كان الإنسان العادي يحتاج إلى ساعتين لقراءة كتاب مثلا.. فسينهيه هو في دقائق قليلة!!!.. وسينجح في أي لعبة رياضية.. لأن عقله سيكون أسرع من عقول خصومه في ردود الأفعال وسرعة البديهة التي تتطلبها الألعاب الرياضية عادة.. من المؤكد أن (طالب) قد أثار استغرابك بالكثير من تصرفاته.. حتى بدا لك.. كـ.. كسوبرمان بشري!!.. أليس كذلك؟!..

سكت مرة أخرى وأنا أحدق به مذهولا!!.. فجعلته نظراتي المتلهفة يكمل بحماس:

-لقد تزوجت والدة (طالب) وأنا في الخمسين من عمري.. حيث سرقتني أبحاثي ودراساتي من الزواج.. ولم أكن لأتزوج لولا إلحاح أخي ووالدتي التي كانت على أعتاب الموت!!.. وبعد أن رزقني الله بـ(طالب).. ظللت أفكر طوال سنوات طفولته إن كان من مصلحته أن يتناول تلك المادة.. ثم اتخذت قراري!!!.. لقد كان ولدي الوحيد وأردته أن يكون الأفضل في هذا العالم.. لم أكن أطمح لأي شهرة أو ثراء من بيع هذه المادة!!!.. فقد تحول طموحي إلى إعطاء ولدي ما لا يملكه أحد في العالم!!!.. وبالفعل!!.. أعطيت (طالب) في طفولته جرعات من هذه المادة على مدى ثلاثة شهور.. إلى أن تم تسريع عقله عشرين مرة تقريبا مقابل العقل البشري العادي!!.. وهذا ما جعله متفوقا في كل شيء تقريبا.. بل إنه قرأ آلاف الكتب وهو لم يتجاوز السادسة عشرة.. لذا فقد كان يمتلك حصيلة هائلة من المعرفة!!.. وربما هذا أبهرك بالفعل وأبهر كل أساتذته.. حدث كل هذا دون أن يعرف هو نفسه أي شيء عن تلك المادة التي تناولها.. بل ودون أن تعرف والدته.. فقد ظنه الجميع موهوبا فحسب!!.. مجرد هبة ربانية لا يد لـ(طالب) فيها!!.. كان فقط يستغرب من ردود أفعال الناس البطيئة المملة.. وهو التأثير السلبي لمن يملك عقلا يفوق عقول الآخرين سرعة بعشرين مرة كما أخبرتك!!.

سكت أخيرا.. حتى ساد الصمت تماما في السيارة عدة دقائق.. قبل أن أقول بذهول:

-ولكن.. سيدي.. ما الهدف من إخباري بكل هذا؟!..

قال لي بجدية:

-إنك أصدق أصدقاء (طالب) رحمه الله وأنا أعرض عليك أن تكون مثلما كان في حياته.. أعرض عليك تناول تلك المادة حتى تصبح سوبرمان آخر.. فأنا رجل عجوز وأعلم جيدا أن المتبقي من حياتي سنوات -وربما شهور -قليلة مع كل الأمراض التي أعاني منها.. لا أريد أن أموت ويموت معي هذا الاكتشاف.. أريده أن ينتقل إلى شخص آخر يستحق.. لقد رأيت بنفسك ما فعلته تلك المادة مع (طالب).. بيدك الآن أن تكون متفوقا في دراستك.. أن تكون أفضل رياضي في العالم.. أن تكتسب ثقافة العالم كله في فترة قياسية.. ماذا تقول؟!..

قلت له بتردد وانبهار:

-سيدي.. لا أعرف ما أقول.. الأمر كله مفاجئ ويفوق المقاييس البشرية.. لا يمكن أن أعطيك رأيي الآن!!..

قال بتفهم:

- سأعيدك إلى بيتك يا ولدي.. تستطيع الاحتفاظ بالقنينة التي تحوي تلك المادة ولو قررت استخدامها فتناول رشفة صغيرة منها يوميا.. رشفة بحجم ملعقة الشاي.. وستلاحظ تغيرا تدريجيا مهولا في سرعة عقلك واستيعابك للأمور.. ولو اخترت حياتك الحالية، فتستطيع أن ترمي القنينة في القمامة.. لا تعيدها إلي لأنني لن أحتاج إليها.. ولا تخبرني بقرارك.. اتخذه بنفسك ولا تخبر به أحدا!!.. ولكن أرجوك تذكر.. لن يكون هناك مجالا للتراجع متى ما تناولت المادة.. فمفعولها أبدي!!.. ولا بد أن تعرف أيضا أن هذه المادة لا علاقة لها بالورم الخبيث الذي أصيب به (طالب) رحمه الله..

لم أنطق بحرف.. سكت تماما.. فأومأ برأسه متفهما وأوصلني إلى منزلي وودعني بعد أن احتضنني بحنان وكأنه يحتضن ابنه.

ذهبت بعدها إلى غرفتي وعقلي يعمل بجنون إن صح التعبير!!.. هل أخوض هذه التجربة؟ ؟!.. سيصبح العالم كله في عيني وكأنه فيلم يعرض بالحركة البطيئة!!.. ولكن.. المجد.. الشهرة.. القوة.. الثقافة.. العلم.. الثراء!!.. كل هذه الأشياء تنتظرني!!.. خاصة أنني سأقوم باستخدام كل هذا النفوذ في الخير.. والخير وحده.. ثم.. نظرة سريعة إلى القنينة!!.. واتخذت قراري.. سأصبح مثل (طالب)!!!.. مثله تماما!!.

دودة الكتب حرامية

خيانة

الخيانة الزوجية!!.. حكاية مكررة نقرأ عنها دائما وربما بشكل يومي في الصحف والمجلات.. ولكن.. لماذا حكايتي أنا مختلفة؟ !!.. لأنها غريبة.. ولا أعتقد أنها قد حدثت لأحد من قبل!!.

إنني أخون زوجي!!.. أعرف ما ستقولون.. ستتحدثون معي عن الجانب الأخلاقي للموضوع وأمور كثيرة أحفظها عن ظهر قلب.. لكني لم أفكر في ذلك على الإطلاق.. ولا أدري في الواقع إن كان اللوم يقع علي أم على زوجي.. فزوجي رجل أعمال في بداية حياته يعشق عمله حتى النخاع ولا أراه تقريبا إلا في أوقات النوم أو الأكل.. فالبيت بالنسبة له مجرد فندق يقضي فيه ليلته ويتناول فيه طعامه!!.

في بداية زواجنا فرحت لأن زوجي رجل يصب كل اهتمامه في عمله!!.. صحيح أنه في بداية الطريق ولم يصل لمرحلة الثراء بعد.. لكنه سيصل!!!.. الجميع يعرفون هذا.. خاصة أنه يخطو خطوات سريعة تثير الحسد نحو النجاح!!.. ولكن هذا لم يكن يكفيني.. فقد كنت أعيش فراغا رهيبا.. حتى إنني ضعفت أمام أول محاولة للخيانة عندما تعرفت على شاب وسيم أشعرني بأنوثتي وجمالي.. شاب رائع كان يضع العالم كله بين يدي!!.

استمرت علاقتي السرية معه قرابة الثلاثة شهور قبل أن تقع تلك الحادثة التي أعتبرها صفعة قوية لا تنسى على قفاي الجميل!!.

حدث كل شيء في ليلة واحدة.. أو ربما ليلتين.. عندما أهداني عشيقي الثري ساعة باهظة الثمن من الماس لا يقل سعرها عن عشرين ألف دينار!!.. أذكر جيدا أنني طرت فرحا بهذه الهدية فهي أغلى وأجمل هدية أتلقاها في حياتي.. أخذت منه ذلك الصندوق الرائع الذي يحوي الساعة الماسية.. وتركت عشيقي شاعرة وكأن الدنيا تبتسم لي بحق.. تبتسم لي حقيقة لا مجازا.. و -كأي أنثى- تعشق المجوهرات.. لم أنتظر طويلا.. إذ ذهبت مباشرة إلى ذلك المحل الفاخر في مجمع (الصالحية) لتصغير سوار الساعة قليلا.. فقد كانت واسعة قليلا على رسغي الناعم.. وهناك فوجئت بزوجي!!!!.. كان يجلس في مقهى (ستار بوكس) الشهير مع أحد أصدقائه.. عندها فقط شعرت بذعر هائل.. فالساعة في يدي.. ولو رآها زوجي سيسألني بالتأكيد عن مصدرها!!.. إذ إننا لا نملك ثمن ساعة كهذه.. ولم نصل بعد إلى تلك الدرجة من الرفاهية والثراء.. ماذا؟!.. أخرج من المجمع؟ ؟!.. سيكون هذا مستحيلا دون أن يراني زوجي.. المصيبة أنه قد نهض من مكانه مع صديقه ليقوما بجولة صغيرة في المجمّع.. لم أنتظر أكثر من هذا.. فقد دخلت مسرعة إلى المحل المقصود.. وهناك طلبت منه تصغير سوار الساعة.. ولكن:

-سيدتي.. يجب تعبئة هذه الاستمارة أولا!!!..

اللعنة.. إن زوجي يقترب من هذا المحل بالذات.. ما هذا الحظ السيء؟ !!..

قلت لموظف المحل بعصبية أثارت استغرابه:

-لا وقت لدي.. أنا مستعجلة جدا..

-ولكن يا سيدتي هذا من شروط كفالة الشركة للساعة!! و..

قلت له بتوتر بالغ:

-اللعنة.. سأترك الساعة عندك.. فقط أعطني أي شيء يثبت أنني تركتها لديك..

رد باستغراب:

-لدي قسيمة شراء.. لكن قسيمة الشراء هذه لا تتجاوز ال 500 دينار.. وهذه الساعة تساوي أكثر من ذلك بكثير.. أنت تعرفين ذلك.

قلت له بقلق هائل:

-أنا أثق بك!!.. أعطني قسيمة الشراء وسآتي بها غدا لأستلم الساعة..

اتسعت عيناه ذهولا وهو يقول:

-دعيني أمضي لك على القسيمة على الأقل!!..

لم يكن هناك مجال لعمل أي شيء آخر.. فزوجي أصبح على بعد خطوات قليلة جدا من المحل.. أخذت القسيمة من يد البائع بسرعة بعد أن وقع عليها.. ونظرت إليه نظرة صارمة وكأنني أقول له:

-انتهى النقاش!!..

وضعت القسيمة في جيبي وخرجت من المحل مسرعة لاصطدم بزوجي كما هو متوقع.. و:

-أهلا يا حبيبتي.. ماذا تفعلين هنا؟!..

قالها زوجي بابتسامة تملأ وجهه.. فرددت بدوري بابتسامة عذبة مصطنعة:

-يا لها من صدفة.. لقد استأذنت من عملي للمجيء إلى هنا.. والتفرج على البضاعة الجديدة في هذا المحل..

لم يبدُ علي أي ارتباك لحسن الحظ.. فقد كنت ممسكة جيدا بدفة مشاعري.. ومسيطرة على توتري.. و:

-حسنا يا حبيبتي.. سأراك في البيت بعد جولة قصيرة مع صديقي في المجمع.. فأنا خرجت أيضا لبعض الراحة والاسترخاء من أعباء المكتب..

ابتسمت متفهمة.. وخرجت مسرعة بعد أن ودعت زوجي وألقيت التحية على صديقه!!.

المصيبة أنني نسيت كل شيء عن قسيمة الشراء الموجودة في جيبي!!.. حتى عندما خرج زوجي في نفس اليوم لأخذ الثياب إلى المصبغة ومن ضمنها الفستان الذي يحوي قسيمة الشراء في أحد جيوبه!!.. ولم أنتبه إلى الأمر إلا عندما عاد زوجي مساء ليخبرني بأمر قسيمة الشراء التي وجدها في جيب الفستان عندما أخذ الثياب إلى المصبغة!!.. لقد ارتبكت بشكل واضح لا يقبل الشك.. لكنه لم ينتبه لحسن الحظ.. ولم أجد أي كذبة مقنعة لتبرير وجود تلك القسيمة في جيبي سوى:

-لقد وجدتها على الأرض خارج مجمع (الصالحية)!!.. فوضعتها في جيبي ثم نسيت أن أخبرك بذلك..

قال لي مبتسما:

-لا عليك يا عزيزتي.. ما رأيك أن نستغل القسيمة ونحصل من خلالها على شيء مجاني من ذلك المحل؟ ؟!.. سآخذها غدا إلى مجمع (الصالحية) لأجلب لك شيئا جميلا من هناك..

لا يحق لي أن أتحدث عن الجانب الأخلاقي للأمر.. لأنني أخون زوجي.. وأمر كهذا أقل من الخيانة بكل تأكيد.. لذا فلم أخبره أن أمرا كهذا غير لائق.. بل قلت:

-لا.. لا داعي لذلك.. سآخذها أنا إلى هناك لأشتري بها شيئا يناسب ذوقي..

رد بإصرار رقيق:

-ولماذا يا عزيزتي.. هذه القسيمة جاءتنا بضربة حظ.. أريد أن استغلها لشراء هدية لك!!.. كما أنني سأكون غدا في مجمع (الصالحية) للقاء أحد رجال الأعمال في مكتبه.. سأجلب لك هدية جميلة.. وإذا لم تعجبك تستطيعين تغييرها..

قال هذا وذهب مسرعا إلى غرفة النوم لتبديل ثيابه.. لم أجرؤ على الإصرار.. سأثير شكوكه!!.. ربما أثرت شكوكه بالفعل بسبب القلق الذي بدا واضحا على ملامحي!!.

ترى ماذا سيحدث في المحل غدا.. لا أعلم.. حقا لا أعلم.. ظللت طوال الليل أتقلب على نار في فراشي شاعرة بقلق هائل خوفا من أن أخسر تلك الساعة.. أخشى أن يغشه ذلك البائع ويعطيه شيئا بقيمة القسيمة فحسب.. ظلت تلك الخواطر تلعب في ذهني حتى غالبني النعاس ونمت أخيرا.

في اليوم التالي.. اتصل بي زوجي فرحا ليقول:

-لم أخبر موظف المحل أنك وجدت تلك القسيمة في الشارع بالطبع.. بل أظهرتها له دون أن أقول شيئا.. وعندما رأى توقيعه على القسيمة أخبرني بأن سيدة قد جاءت إليه وتركت عنده ساعة من الألماس لتصليحها ولكن السيدة نست أن تعطيه مقاس معصمها.. وقد أعاد لي الموظف الساعة ظنا مني أنني زوج تلك السيدة!!.. إنها ساعة رائعة يا حبيبتي.

لم أتوقع أبدا أن تسير الأمور بهذه البساطة!!.. هذا رائع!!!.. قلت لزوجي بلهفة:

-أريد أن أراها.. سآتي إلى مكتبك الآن!!..

ضحك قائلا:

-بالطبع يا حبيبتي.. أنا بانتظارك..

كنت أقود سيارتي كالمجنونة للوصول إلى مكتب زوجي.. قلبي يخفق بشدة!!.. إن المجوهرات تخلب لب المرأة.. إنها جزء من شخصيتها.. جزء من حياتها!!.. سل أي امرأة وستخبرك بذلك!!.. و.. وصلت إلى مكتب زوجي بعد أقل من نصف ساعة.. فألقيت تحية سريعة على السكرتيرة التي رحبت بي بابتسامة عريضة ثم:

-أهلا يا سيدتي.. زوجك بانتظارك!!..

ابتسمت ممتنة ودخلت مكتبه.. واحتضنني بحنان قبل أن يقول:

-أغمضي عينيك!!.

قلت له بسرعة:

-أرجوك يا حبيبي.. لا أطيق الانتظار..

نظر إلي مبتسما.. ثم أخرج لي من جيبه الساعة.. و.. أصبت بصدمة!!!.. وخيبة أمل شديدة!!!..

هذه الساعة.. إنها ليست الساعة التي تركتها في الأمس عند ذلك البائع.. اللعين.. لقد خدعني!!!.. لقد أعطى زوجي ساعة أخرى بقيمة القسيمة.. الوغد.. سأذهب إليه حالا وأطلب منه الساعة الحقيقية.. إن الساعة التي أهداني إياها عشيقي تساوي عشرين ألف دينارا على الأقل كما أخبرتكم.

شكرت زوجي كثيرا وتركته مودعة مع ابتسامة مصطنعة مزيفة ترتسم على وجهي.. بينما في واقع الأمر كنت أغلي من شدة الغضب بسبب ذلك البائع اللعين الذي خدع زوجي وأعطاه ساعة أخرى.

خرجت من مكتب زوجي.. فألقيت التحية مرة أخرى على السكرتيرة قبل أن تقع عيني بالصدفة البحتة على شيء جعل قلبي يكاد أن يتوقف من هول المفاجأة.. لقد.. لقد وقعت عيني على يد السكرتيرة وهي ترتدي.. نعم لقد كانت ترتدي الساعة ذاتها.. إنها الساعة نفسها التي أهداني إياها عشيقي!!!!.. توقفت للحظة وأنا أنظر إلى يدها غير مصدقة.. الآن فهمت!!!.. لم يكذب الموظف.. بل أعطى زوجي الساعة الأصلية بالفعل.. وزوجي أعطاها إلى سكرتيرته واشترى لي بدلا منها ساعة أقل سعرا بكثير!!!!.. إن زوجي يخونني أيضا.. يخونني مع تلك السكرتيرة!!.. لقد فضلها علي وأعطاها الساعة الماسية.. بينما اشترى لي ساعة أرخص بكثير!!!.. خرجت من مكتب زوجي والأفكار تصطرع وتتضارب في عقلي.. أنا أخون زوجي وهو يخونني مع السكرتيرة!!.. ما زلت حتى هذه اللحظة عاجزة عن اتخاذ أي ردة فعل بعد تلك المفاجأة القوية التي شلت عقلي.. ما زلت عاجزة عن التفكير.. ما زلت أجهل ما يجب فعله!!.

آخر إنسان على كوكب الأرض

كثيرا ما يستيقظ الإنسان على مصيبة أو خبر غير سار لم يكن في الحسبان.. أما ما حدث -وما يحدث- معي فهو أمر يفوق الوصف.. أمر يقودني إلى الجنون شيئا فشيئا.. ربما أصبت بالجنون فعليا دون أن أعلم!!.. فالمجنون لا يعرف أبدا أنه مجنون.. هكذا يقول الخبراء!!.

لا أنسى ذلك اليوم اللعين أبدا.. عندما استيقظت صباحا من النوم بعد ليلة طويلة احتسيت فيها الكثير من الخمر وتعاطيت فيها الحشيش!!!!.. نعم.. لقد تركتني زوجتي لهذه الأسباب لكني لم أكترث لفراقها.. بل غصت أكثر في عالم الرذيلة.. حتى إنني قمت بتأجير شقة صغيرة أفعل بها كل ما أريد.. وأقضي فيها ليلتي بعد أن انفصلت عن زوجتي!!.

كنت في ذلك اليوم أستعد للذهاب إلى العمل بعد أخذ حمام ساخن وتناول إفطار بسيط صنعته لنفسي.. خرجت بعدها من شقتي وما زال الصداع يقتلني بسبب الإفراط في شرب الخمر ليلة أمس.. و.. لم أنتبه في البداية إلى خلو الحي السكني من أي إنسان!!!.. ولكن عندما خرجت إلى الشارع العام بدأت أنتبه!!!.. الشوارع خالية تماما.. لا يوجد أحد على الإطلاق!!.. بدأت بطريق البحر حيث تقع شقتي في منطقة (السالمية).. واتجهت بعدها إلى دوار (البدع) الذي يمتلئ بالسيارات عادة!!.. ألتفت يمينا ويسارا علني أجد أحدا!!.. لا أحد إطلاقا!!.. بدأ الذعر يتملكني!!.. بل وتحول الذعر إلى هلع عندما شعرت وكأنني.. وكأنني أعيش في دولة أشباح!!.. هل أنا أحلم؟؟!!.. مستحيل.. ليس هذا حلما بالتأكيد.. ولست ثملا أيضا بسبب سهرة الأمس!!!.. وصلت إلى العمل وأنا أرتجف من قمة رأسي حتى أصابع قدمي!!!.. أين ذهب الجميع؟؟!!.. لا يوجد أي أثر لأحد.. لقد مر على وقت العمل الرسمي قرابة العشر دقائق ولم يظهر أي مخلوق بعد!!!!.. إنني أعمل في مؤسسة حكومية تمتلئ دائما بالمراجعين والموظفين.. فكيف تخلو تماما من الناس في مثل هذا الوقت؟!.

لم أنتظر أكثر من ذلك.. اتصلت سريعا بوالدتي.. ولكن!!.. لا أحد يرد.. اتصلت بجميع الأرقام الموجودة على هاتفي النقال دون جواب من أحد!!!.. إنني.. أشعر بالضياع!!.. جلست في مقر عملي قرابة النصف ساعة.. هل أنا آخر إنسان في (الكويت) فقط؟!.. أم أنني آخر إنسان على وجه الأرض؟؟!!!.. ارتجفت بقوة لهول الفكرة.. مهلا.. أستطيع التأكد من ذلك.. قمت سريعا بالدخول إلى شبكة الانترنت.. عشرات المواقع والمنتديات العربية والأجنبية.. لا يوجد أحد حتى على شبكة الإنترنت!!!.. ما الذي يحدث؟ !!.. أين ذهب الجميع؟ ؟!.. أشعر بتوتر عجيب في أعماقي وذعر ما بعده ذعر.

ظللت فترة طويلة متسمرا في مكتبي في مقر العمل عاجزا عن التفكير.. و.. بعد ساعات قليلة.. بدأت أشعر أن الأمر ليس بذلك السوء!!.. بل إنني في واقع الأمر قد أستمتع بهذه الوحدة!!.. فأنا أستطيع الذهاب إلى أفضل معارض السيارات لقيادة سيارات لم أكن أحلم يوما بقيادتها!!.. أستطيع الذهاب إلى أفضل وأرقى المحلات التجارية لأخذ كل ما أريد دون أن أدفع فلسا واحدا!!.

لم أقاوم هذا الإغراء!!.. خرجت من العمل وفعلت كل ما قد يحلم به أي إنسان.. أي إنسان وحيد!!.. دخلت العديد من البيوت.. أرقى البيوت والفلل في (الكويت).. جميع الأبواب مفتوحة.. إن الاطلاع على أسرار الناس لذة ومتعة لا ينكرها أحد!!!.. العشرات من المذكرات وألبومات

الصور العائلية التي عشت معها لحظة بلحظة.

ذهبت أيضا إلى مجمع (المارينا) لأمشي فيه وحيدا تماما.. وأستمع إلى صوت الموسيقى الرقيقة التي تنبعث من جهاز التسجيل عبر السماعات العملاقة.. شعور غريب حقا.. ظللت ساعات قليلة في مجمع (المارينا) لأخرج بعدها محملا بعشرات الأكياس التي تحوي كل ما يخطر على بال أحد من أفلام وأقراص مدمجة وثياب وهدايا وكماليات وأموال وذهب.. إلخ!!!.

ظللت على هذه الحال قرابة الثلاثة أيام!!.. ليصبح بعدها كل شيء مملا!!.. ويبدأ القلق يلتهم قلبي مرة أخرى!!.. لقد فعلت في تلك الأيام الثلاثة كل ما قد يحلم به أي إنسان وحيد في هذا العالم!!.. ولكن ماذا سيحدث بعد هذا؟ ؟!.. هل سأظل وحيدا هكذا إلى الأبد؟!.. كنت أشعر بخوف شديد!!.. خصوصا في الأيام الممطرة عندما تعربد الغيوم وتهطل الأمطار بغزارة وأنا في شقتي وحيدا في هذا العالم.. كان شعورا مخيفا بحق.. أفتح التلفزيون لأجد جميع القنوات الإخبارية المباشرة لا تعمل.. وشيئا فشيئا توقفت جميع القنوات عن العمل.. متى سينتهي هذا الكابوس؟!.. لا أستطيع أن أعيش هكذا.. أريد آخرين.. أريد آخرين وإلا سأجن حتما!!.. أريد أن أتحدث إلى أحد.. أي إنسان!!..

لقد بدأت بكتابة مذكراتي بسبب الوحدة الشديدة التي أعانيها!!.. أريد أن يشاطرني أحد أفكاري حتى لو كان قلما!!!..

إنني الآن في اليوم الثامن والعشرين من الوحدة.. أشعر أنني على أعتاب الجنون.. قضيت أياما طويلة لا أفعل فيها شيئا سوى الهروب المؤقت بواسطة الخمر والحشيش.. حتى أنسى ما يحدث لي.. إنني أعيش لغزا هائلا لا أعرف سبيلا إلى حله.. إن الجنون يطرق بابي ويزحف على أعصابي ليصل إلى عقلي.. أكاد أشعر به!!.

إنني الآن في اليوم الرابع والأربعين.. لا أجد شيئا أكتبه.. إنني عاجز عن النوم لأنني أعرف ما ينتظرني في اليوم التالي!!.. جميع الأيام متشابهة لدي!!.. مزيدا من الخمر والحشيش وذلك الوحش الذي لا يرحم.. الوحدة!!.

إنني الآن في اليوم الستين.. ستون يوما عشتها وحيدا على كوكب الأرض.. إنني مستعد لدفع عمري كله مقابل الحديث لمدة خمس دقائق مع أي إنسان.. لقد أصبح شكلي مخيفا.. فنمت لحيتي.. ولم أستحم منذ زمن.. بل ولم أبدل ثيابي منذ شهر تقريبا.. سأفقد عقلي.. سأفقد عقلي قريبا!!.

-ماذا يحدث لهذا المجرم يا (سالم)؟ ؟!.. إنه ينتفض بشدة؟؟!

قالها شاب في مقتبل العمر وهو يشاهد رجلا في غيبوبة ممددا على سرير وتلتف حوله العديد من الأنابيب وأسلاك الكهرباء في تلك الشقة في منطقة (السالمية)..

التفت إليه الدكتور (سالم) بحنان.. وقال له:

-إنه يعيش أسوأ كوابيسه يا أخي.. إنه يدفع ثمن قتله لوالدنا وخروجه من القضية بسبب محامٍ استطاع أن يجد ثغرات برأته من التهمة.. القانون لم يستطع أن يثأر لوالدي.. لذا فنحن نثأر منه بطريقتنا الخاصة..

سأله شقيقه باهتمام:

-ما الذي تفعله بهذا المجرم بالضبط؟؟

قال له الدكتور (سالم) بحزم:

-إنه نائم بعمق بسبب الحقن المنومة التي أحقنه بها.. نومه سيمتد ليوم أو يومين.. ولكن في عقله الباطن سيظن أن سنوات مضت وهو على هذه الحال.. فالزمن في العقل الباطن يفوق كثيرا الزمن الحقيقي الذي نعيشه.. لذا فقد صنعت له كابوسا من عالم خاص.. سيظن أنه أفاق من نومه وأنه آخر إنسان على كوكب الأرض.. ستمر عليه سنوات طويلة وحيدا ولن يعرف أبدا أنه يعيش في حالة سبات لا تتجاوز بضعة أيام وضعته أنا فيها.. إنه يتعذب.. لاحظ جسده الذي ينتفض بقوة.. إنها تأثيرات العذاب النفسي والشعور بالوحدة.. ربما مرت على عقله الباطن شهور طويلة وهو يعيش وحيدا في العالم كما يظن ولن ندعه يستيقظ إلا بعد أن يفقد عقله تماما.

سكت قليلا.. ثم ابتسم قائلا:

-لحسن الحظ أنه وحيد في عالم الواقع بعد أن تركته زوجته.. ولن يعرف أحد أنه في غيبوبة مصطنعة في هذه الشقة.

سأله شقيقه باهتمام:

-كيف فعلت هذا يا (سالم)؟!

أجاب ببساطة:

-ما أفعله ليس جديدا في واقع الأمر.. فقد أجرى بعض العلماء تجارب محدودة حول هذا الأمر تتمثل في إثارة أجزاء معينة من المخ بأقطاب كهربائية تجعل المريض يشعر بأنه يشم رائحة لحم مشوي مثلا.. أو يركب دراجة.. أو يتلذذ بكوب عصير بارد.. وقد ساعدت هذه النوعية من التجارب كثيرا في رسم خرائط تكشف مراكز الإحساس بالمخ كان لها الأثر الأكبر في نجاح الكثير من العمليات الجراحية التي تجري في الدماغ والمخ على وجه التحديد ([13]).. إنني أقوم بتلك التجربة الآن ولكن بصورة متطورة جدا يا أخي العزيز.. لقد قمت بتحسينها حتى يكون انتقامنا لأبي في أفضل صورة.

قال بعدها بحماس شديد:

-عندما يستيقظ من غيبوبته سيكون قد فقد عقله تماما.. وعندما يفقد عقله.. سأكون قد ثأرت لوالدنا.. سيعيش هذا الوغد طوال حياته مجنونا.

تنهد شقيقه بارتياح.. وأكمل الدكتور (سالم) قائلا:

-إنني أضرب عصفورين بحجر واحد.. أثأر لوالدي أولا.. وأجري تجاربي على المخ ثانيا.. أنت تعلم أنني لا أجد دعما حكوميا لتلك التجارب.. لذا فأنا أقوم بها بمفردي وبسرية تامة.. وأعتقد أن تجاربي تنجح.. فها نحن قد صنعنا عالما متكاملا في العقل الباطن لهذا الوغد.. ومع مراعاة عامل الزمن في العقل الباطن والذي يفوق كثيرا عامل الزمن الحقيقي الذي نعيشه كما أخبرتك.. فإنني أجزم أن الوغد لن يعيش للغد حتى يفقد عقله تماما.. وعندها فقط سنعيده إلى عالم الواقع.. سنعيده مجنونا.

ابتسم شقيقه ثم قال بحزم:

-إن هذا المجرم ينال القصاص الذي يستحقه أخيرا.. دماء والدنا لن تذهب هدرا.. هذا أقل جزاء

يستحقه.

حبيبتي المجهولة

اسمي (رائد).. هل تعرفوني؟!.. لا أعتقد.. إنني إنسان وحيد إلى حد مروع.. أعيش بلا أهل أو أصدقاء.. وأعظم مخاوفي أنني لو اختفيت من على وجه الأرض فلن ينتبه أحد لذلك.. أو حتى يسأل عن سبب اختفائي.. وربما أقسى آلامي هو معرفتي أن كلامي هذا صحيح إلى حد كبير..

أذهب إلى العمل يوميا.. وأعود إلى شقتي حيث تنتظرني طاولة طعام تحوي كرسيا واحدا.. وقفصا زجاجيا صغيرا يحوي سلحفاة برمائية تجسد عالم العزلة والوحدة اللتين أعيشهما.. هذه هي حياتي باختصار شديد.. أيام متشابهة مكررة.. حياة باردة لا أريد منها شيئا سوى أن أتذوق ذلك الإكسير السحري.. الحب!!.. نعم.. أتمنى أن أتذوق طعم الحب.. فهذا هو الحلم الوحيد الذي أعيش من أجله.. المشكلة أنني إنسان خجول جدا لا أملك جرأة الشباب في التقرب إلى أي فتاة!!..

ظللت سنوات طويلة على هذا الحال.. إلى أن جاءت تلك الحادثة التي غيرت مجرى حياتي.. كيف؟ !!.. تابعوا معي.

كنت مستيقظا في وقت متأخر من ليلة الأربعاء أشاهد قناة الأفلام.. عندما أردت الاتصال بأحد مطاعم الوجبات السريعة لطلب وجبة العشاء!!.. رفعت سماعة الهاتف وإذا بصوت أنثوي رقيق جدا.. و..:

-أهلا.. من أنت؟!..

رددت باستغراب:

-أنا لم أتصل بك يا سيدتي!!!.. لقد رفعت سماعة الهاتف وإذا بك على الجانب الآخر!!..

غمغم الصوت الأنثوي بدهشة:

-لا أفهم كيف حدث هذا!!.. لقد وجدتك فجأة على خط الهاتف!!..

تنهدت وقلت بأدب:

-لا عليك.. أنا أعتذر عموما إن كنت قد سببت لك أي إزعاج!!..

رد الصوت بحماس رقيق:

-لا عليك.. لا تعتذر.. أنا.. كنت.. كنت أتمنى أن تحدث صدفة كهذه!!..

سألتها باستغراب شديد:

-لماذا؟!.

ردت بصوت حزين:

-إنني أعاني وحدة شديدة.. وأشعر أن القدر قادني إليك!!..

صعقت لهذا القول.. أو ربما لهذا الغزل!!.. هل هذا غزل؟ !!.. لا.. لا أعتقد.. يبدو لي وكأن الفتاة تحتاج إلى أحد!!!.. طرحت تلك التساؤلات خلفي بعد أن وجدت نفسي أنجذب لا شعوريا لتبادل أطراف الحديث معها.. فكل رجل في العالم يأمل أن يحصل على فرصة كهذه.. أن يتعرف على

فتاة عبر الهاتف عن طريق الصدفة!!.. حيث يصور لك خيالك أنها فتاة أحلام كل رجل وملكة جمال الأكوان.. جميعنا نشعر بذات الشعور حين نسمع صوتا رقيقا عبر الهاتف!!.. كان صوتها دافئا.. حزينا لسبب لم أفهمه.

تحدثنا عن أمور كثيرة.. ولم ننتبه إلا بعد انقضاء ساعة كاملة من الحديث.. وعرفت منها أن اسمها (سلمى).. وأنها موظفة في إحدى شركات القطاع الخاص.. وأنها وحيدة!!!.. مثلي تماما!!.. إذ توفي والداها في حادث سيارة منذ شهرين وما زالت تعاني آلاما نفسية لا حصر لها.. ولا يوجد لها أقارب أو أي أحد يهتم لأمرها!!.. إنها نسخة أنثوية مني إن صح التعبير!!.

أنهينا المكالمة على وعد أن تتصل بي غدا بعد عودتي من العمل!!!.. وكان ما تمنيته بالفعل!!.. فقد اتصلت بي في اليوم التالي في الساعة الثامنة مساء.. من النادر جدا أن يرن هاتف شقتي.. من النادر جدا!!!.. لذا كان صوت رنين الهاتف عندي أمرا غير مألوف إطلاقا!!.. تحدثنا قرابة الساعتين هذه المرة.. كان حديثا دافئا عذبا!!.. خاصة أنني كنت متدثرا تحت اللحاف.. وضوء الشمعة الرقيق في غرفتي مع موسيقى حالمة يعطيان هذه المكالمة سحرا لا يوصف!!.. لم يكن من العسير أن أقع في حب هذه الفتاة قبل أن أراها.. لم يكن الأمر عسيرا على الإطلاق!!.. فأنا أعيش حياة أحتاج فيها إلى شريك.. إلى حب.. إلى لمسة أنثوية.. لذا لم أتردد إطلاقا في الإفصاح عن مشاعري..

-(سلمى).. أنا.. أنا أحبك!!..

لم يبد عليها الاستغراب كوني أفصح عن حبي لها وأنا لم أرها من قبل.. وكونها تتحدث معي للمرة الثانية فقط!!.. بل فوجئت بها وهي تقول بصوت حزين:

-وأنا.. وأنا أحبك أيضا يا حبيبي!!.. كنت أخجل من الاعتراف خوفا ألا تصدقني.. كونها المرة الثانية فقط التي نتحدث فيها!!..

قلت لها بانفعال شديد:

-حبيبتي.. أنت أهم ما حدث لي في حياتي.. أعلم أنني قد أبدو غبيا ومتسرعا عندما أقول هذا الكلام.. لكني.. لكني لا أستطيع أن أكتم مشاعري.. أنا أحبك.. أحبك.. ربما ستقولين إن نمط حياتي يجعلني أفقد اتزاني لأقع في غرام أول فتاة أتحدث إليها عبر الهاتف.. لكني أحبك بالفعل.. إنني أعيش حاليا أجمل لحظات حياتي معك.. لقد أعطيت لحياتي معنى يا (سلمى).. أنا أحبك.. أحبك يا حبيبتي.. و..!!!!..

شعرت أنها تبكي.. أو.. تنتحب.. فقلت لها بحنان:

-حبيبتي.. أريد أن أراك الآن.. أرجوك.. فلنلتق الآن.. أريد أن تكون يدي هي التي تمسح دموعك يا حبيبتي!!..

شعرت وكأنها استفاقت من حلم جميل!!.. فقد اتخذ صوتها فجأة بعض الجدية وهي تقول بحزم يشوبه الكثير من الحزن:

-لا أستطيع!!!.. أرجوك اغفر لي!!.. أرجوك..

ثم.. غرقت في بكاء شديد!!.. فقلت لها بلوعة:

-لماذا يا حبيبتي؟!.. أقسم بأنني سأجعلك أسعد فتاة في العالم.. سأكون إلى جانبك طوال الوقت..

سأكون.....

قاطعتني وهي تبكي:

-سامحني يا حبيبي.. أرجوك سامحني.. أرجو أن تنساني.. لن أتصل بك بعد الآن!!..

ثم أقفلت الخط فجأة دون أن تنتظر ردة فعلي.. هكذا بكل بساطة!!.. نهضت من مكاني ملسوعا وشعرت بلوعة تأكل قلبي.. هل تعرف ذلك الشعور باللوعة؟؟!!.. عندما تنتهي علاقتك مع حبيبتك فجأة دون سبب ودون أن تتمكن من اتخاذ أي رد فعل!!.. إنني حتى لا أعرف رقم هاتفها ولا أعرف عنها أي شيء سوى اسمها الأول.. مهلا!!!.. أنا أعرف مكان عملها.. لقد أخبرتني بأنها تعمل في واحدة من شركات القطاع الخاص وأخبرتني باسم الشركة.. سأتصل بالشركة في الصباح الباكر لأسأل عنها.

مرت الساعات ثقيلة طويلة مملة عجزت فيها عن النوم تماما وأنا أنتظر بدء ساعات العمل في الشركة التي تعمل بها حبيبتي.. ظللت أنتظر وأنتظر حتى جاء الموعد المنتظر.. رفعت سماعة الهاتف في تمام السابعة و.. خط الهاتف مقطوع.. اللعنة!!.. ما هذا الحظ؟؟!!.. أتصل بالهاتف النقال؟!.. لا.. سآخذ إجازة عارضة من عملي لأذهب إلى الشركة بنفسي وأسأل عن حبيبتي (سلمى).. سأفعل المستحيل للعثور عليها..

كنت متوترا طوال الطريق.. ولا أعرف حتى الآن كيف وصلت إلى مقر الشركة لأذهب مسرعا إلى إدارة شؤون الموظفين.. حيث طلبت من أحد الموظفين -بعد أن رجوته التحدث على انفراد-أن يخبرني بالاسم الثلاثي ل(سلمى) وبمكان عملها في الشركة.. لم أتوقع إطلاقا أن يحدث ما حدث.. كان أمرا رهيبا إلى حد لا يطاق.. فقد قال الموظف باستغراب:

-لا أعرف كيف أقول لك هذا.. ولكن.. توجد لدينا فتاة واحدة تحمل اسم (سلمى).. وقد.. وقد توفيت منذ فترة..

لم أشعر في حياتي بصدمة كتلك التي شعرت بها عند سماعي لهذا الكلام!!.. هذا مستحيل.. مستحيل!!.. وأمام نظراتي المذعورة.. سألني بتوتر:

-ربما كنت مخطئا في الاسم.. أو حتى في جهة العمل!!..

انتفضت بقوة عند هذا الكلام.. فعلا.. ربما لم تخبرني باسمها الحقيقي.. ربما لم تخبرني حتى بمكان عملها الحقيقي.. ولكن.. كل شيء في كلامها كان يوحي بالصدق!!..

خرجت من مقر الشركة وأنا أحمل هموم الدنيا كلها على كتفي.. لقد بثت فيّ هذه الفتاة أملا في الحياة.. ثم وبكل بساطة.. سلبت مني هذا الأمل مرة أخرى!!.

كنت في طريقي إلى البيت ودموعي تملأ عيني!!.. لقد كان اسمها ومقر عملها كل ما أعرفه عنها.. فلو كانت تلك المعلومات غير صحيحة فهذا يعني استحالة الوصول إليها.. غرقت في تلك التساؤلات قبل أن أتذكر خط الهاتف المقطوع في شقتي.. يجب إعادته إلى العمل.. مسحت دموعي وقمت بالاتصال من هاتفي النقال بوزارة المواصلات لإصلاح الخط.. و.. عندها فقط عرفت.. عندها فقط عرفت أن قصتي مخيفة!!.. مخيفة بحق وتحوي بعدا لا يعرفه الكثير من الناس.. بعدا ميتافيزيقيا!!!.. فقد أخبرني موظف الطوارئ أن هناك خللا فنيا أصاب المقسم منذ ثلاثة أيام انقطعت على إثره الخطوط في جميع أنحاء المنطقة!!!!.. بدأت أتذكر شيئا فشيئا.. أنا لم أستخدم هاتف الشقة أو أتلقى أي اتصالات إلا من (سلمى) خلال الأيام الثلاثة الماضية!!..

كيف حادثتها عبر الهاتف رغم الخط المقطوع؟ !!.. هل كنت أتحاور مع.. مع شبح؟!!!!.. ارتجفت من هول الفكرة.. واستدرت عائدا كالمجنون إلى الشركة.. وهناك سألتهم عن كل ما يخص الفتاة التي توفيت.. فتأكدت أنها هي نفسها حبيبتي.. هي نفسها (سلمى).. فقد لقيت مصرعها منذ حوالي شهرين في حادث سيارة مع والديها!!!!.. إنها هي دون شك.. يا إلهي.. لقد كنت أتحدث مع شبح طوال تلك الفترة.. لهذا رفضت أن تراني.. لهذا رفضت الاستمرار في هذه العلاقة.. لقد شعرت حبيبتي بأنها تجاوزت خطوطا حمراء لا يحق لها تجاوزها عندما كلمتني.. لا شك أنها وجدت وسيلة غير معروفة للاتصال بي عبر الأثير من خلال الهاتف رغم انقطاع الخط!!.. ومع شعورها بالوحدة في (عالمها).. وقعت في حبي!!.. تماما كما وقعت أنا في حبها.. لكنها أفاقت وتذكرت أنها ميتة!!.. وعرفت أن حبنا مستحيلا لا مستقبل له إطلاقا!!.. فآثرت الابتعاد!!.

تركتني لتعود إلى عالمها.. عالم الأشباح أو عالم الأرواح!!.. لا أعرف الفارق بينهما ولا يهمني أن أعرف!!!.. المهم أنها تركتني وحيدا في عالم الواقع الذي أعيشه وحيدا.. حزينا.. يائسا!!.

رؤية.. من زاوية أخرى

في الواقع أن قصتي قصيرة جدا.. لكنها وفي نفس الوقت بالغة الغرابة!!.. لا يوجد الكثير ليقال.. كل ما هنالك أنني كنت أسير ذلك اليوم شارد الذهن في سوق (شرق) التجاري!!.. فاصطدم بي رجل طويل القامة ذو بنية رياضية.. موقف عادي وأقل من عادي يحصل كل يوم.. خاصة مع الازدحام الهائل الذي تشهده مجمعاتنا التجارية في (الكويت).. ولكن.. لا أعرف لماذا وجهت كلاما بذيئا لا داعي له أبدا للشخص الذي اصطدم بي على الرغم من أنه يفوقني حجما مرتين على الأقل!!.. جميعنا نتصرف بصورة غريبة أحيانا.. لا شك في ذلك..

ماذا حدث بعدها؟؟!!.. لا.. لم يدق الرجل عنقي لحسن الحظ ولم يحاول قتلي كما قد تظنون.. فقط اكتفى بالنظر إلي بأسى وكأنه يتحسر على سوء سلوكي.. و.. عندما حدقت في وجهه للحظات.. رأيت شيئا مخيفا أثرى كوابيسي وسيثريها إلى الأبد!!!!.. كان وجهه بشعا إلى حد لا يطاق.. ليس بسبب عيب خلقي مثلا!!!.. بل لأن وجهه لم يكن بشريا!!.. لم يكن بشريا أبدا!!!.. التفت إلى الناس بذهول.. هل يعقل أن يرى الناس هذا الوجه ولا يصيبهم الخوف أو الاستغراب على الأقل؟؟!!.. لا يمكن!!.. مهلا.. لقد كان وجهه عاديا عندما اصطدم بي!!!.. ولم تتغير ملامحه إلا عندما حدقت به!!!.. لا أفهم كيف حدث هذا.

كان صامتا يرمقني بهدوء دون أن ينطق بحرف.. وكان صمته مع شكله المخيف أبلغ رد لي كي أخرس وأمضي في حال سبيلي!!.

لم أتوقف عن التفكير لحظة بهذا الرجل.. كيف تغيرت ملامحه ليتحول إلى كائن بشع غريب المنظر دون أن يثير هذا اهتمام أحد سواي؟!.. هل كان الرجل جنيا مثلا ولم يره أحد غيري؟!.. هل كنت واهما؟!.. ليتني أعرف الإجابة.

ظللت أفكر في تلك الحادثة طوال الأيام التالية دون أن أجد جوابا واضحا.. ودون أن أخبر أحدا على الإطلاق.. ثم تناسيت الأمر شيئا فشيئا.. وبقيت القصة مجرد ذكرى ربما أكتبها في دفتر مذكراتي ذات يوم!!!.. ولكن.. لم تكن هذه سوى البداية!!.. فبعد مرور قرابة الشهر على تلك الحادثة.. كنت في إحدى شركات السيارات لأشتري سيارة جديدة.. أمر عادي جدا يحصل مع كل إنسان.. لولا ما حدث لي شخصيا.. نعم.. هو ما تتوقعونه بالضبط!!.. فعندما كنت أتحدث مع البائع وهو يشرح لي بحماس مزايا السيارة.. انتفض جسدي بعنف وأنا أرى ملامح البائع تتغير لتصبح شبيهة إلى حد كبير بملامح ذلك الرجل الذي اصطدمت به في سوق (شرق) التجاري!!.. كان أمرا رهيبا لا يوصف.. بل إنني منعت نفسي من الصراخ بصعوبة بالغة!!.. فخرجت مسرعا من معرض السيارات وسط استغراب البائع الذي تركته دون استئذان!!!.. خرجت والرعب يسيطر على كل ذرة من جسدي!!!.. هل فقدت عقلي؟ !!.. هل أنا واهم؟ !!.. وهل الأوهام تتكرر أكثر من مرة وبنفس الطريقة؟ !!..

ظلت تلك الأسئلة تصطرع في ذهني.. وظل عقلي مشوشا عاجزا عن التفكير!!!.. إلى أن تكرر الأمر بعدها بيومين فقط مع موظفة في مجمع الوزارات كانت في سبيلها لإنهاء معاملة روتينية لي!!.. بالطبع لم أحتمل الأمر.. فقد خرجت من المجمع مسرعا تاركا المعاملة خلفي وأنا أركض كالمجنون إلى السيارة!!!.. كان وجه تلك الموظفة شبيها إلى حد كبير بالوجهين السابقين!!.. لن أحتمل المزيد.. لن أحتمل!!.

ركبت سيارتي وعزمت التوجه إلى أول عيادة للأمراض النفسية.. لا أعرف متى وصلت إلى العيادة.. بل ولا أذكر كيف.. كنت أرتجف بشدة وقلبي يرتج بين ضلوعي.. و.. بالطبع كان لا بد من المرور بالإجراءات الروتينية وتعبئة بعض الأوراق ودفع الرسوم.. إلخ.. إلى أن وجدت نفسي أخيرا في غرفة الدكتور الشهير (......).. ترى كيف أبدأ معه الكلام؟!.. ماذا سأخبره؟ !!.. وهل سيصدقني؟!..

-كيف أستطيع أن أساعدك؟؟

قطع الطبيب حبل أفكاري بسؤاله هذا.. فأخذت نفسا عميقا وكأنني أحتوي الكون كله في صدري.. ثم:

-دكتور!!.. لا أعرف كيف أصف لك ما يحدث لي.. أخشى ألا تصدقني!!!.. الأمر مخيف وبات يتكرر إلى حد لا يطاق في الأيام الأخيرة!!.. إنني حتى....

قاطعني الطبيب بحزم رقيق طالبا مني أن أحكي له ما يحدث بالتفصيل وأن أنسى تماما مسألة التصديق وعدمها.. فشرحت له بخجل شديد ما حدث لأنني أعرف ما سيظنه بي.. ولكن ربما سيجد لي علاجا من هذه الأوهام إن كانت أوهاما فعلا!!.. و.. قبل أن أنتهي.. نهض من مكانه ليقفل باب غرفته.. ثم وقف خلفي وهو يقول بتوتر:

-لا تنظر إلى الوراء إطلاقا.. دعني أتحدث إليك أولا..

وبالطبع كان كلامه بمثابة الأمر بأن أنظر إلى الوراء!!!.. هذا أمر معتاد جدا ويحصل معنا جميعا!!.. وعندما نظرت.. صعقت.. صعقت لما رأيت!!!.. هذا الطبيب.. إنه.. إنه يحمل ذات الوجه البشع!!!.. لم أحدق بملامحه جيدا في البداية عندما جلست أمامه في المكتب.. فقد كان ذهني مشغولا تماما بردة فعله تجاه ما سأرويه له.. لكني الآن أراه بوضوح.. إنه يحمل ذات الوجه.. ذلك الوجه الشيطاني المخيف!!!.. كدت أصرخ.. ولكن الصرخة احتبست في حلقي.. عندها ابتعد عني ولوح بيديه راجيا مني الهدوء وعدم الصراخ!!.. ليقول بجزع:

-أرجوك اسمعني للآخر قبل أن تصرخ!!.. لن أفعل شيئا يضرك.. ولو كنت خائفا من (ملامحي الحقيقية) فلا تنظر إلي..

لم أجد بدا من السكوت!!.. فقط انكمشت في مقعدي برعب وأنا أحاول أن أصرف نظري عن وجه الطبيب إن كان حقا طبيب!!..

راح بعدها يخبرني بالحقيقة التي لن يصدقها أحد منكم بكل تأكيد:

-إنني مخلوق من كوكب آخر!!!.. وجميع الذين رأيتهم هم في واقع الأمر مواطنون من كوكبي.. نحن قوم مسالمون جدا.. ولكن مع الأسف انهارت حضارتنا قبل ثمانية شهور تقريبا من تاريخكم الأرضي بسبب نيزك هائل الحجم ارتطم بكوكبنا ودمره تماما!!!.. ولم ينجُ من تلك الكارثة سوى قلة قليلة لا يتجاوز عددها العشرة آلاف من سكان كوكبي.. إذ لم يقدروا على مواجهة التلوث الرهيب الذي سببه ارتطام النيزك وانتشار الغبار الناتج عنه.. فكان لابد لنا من اتخاذ قرار رهيب.. الهجرة إلى أقرب الكواكب المأهولة.. وقد وقع اختيارنا على كوكبكم.. كوكب (الأرض).. فنحن ندرس كوكبكم باستمرار ونعرف عنه الكثير.. وقد ابتكر أحد علمائنا الناجين أقنعة بيولوجية مريحة جدا نرتديها طوال الوقت كي نختلط بالبشر دون أن يكشفوا أمرنا.. خاصة أننا كنا نعرف أن ملامحنا ستبدو مخيفة بالنسبة لكم.. المهم.. انطلقنا بمركبة فضائية ضخمة تحوي الناجين من سكان كوكبي.. حيث هبطنا على سطح الأرض منذ شهرين وأخفينا مركبتنا الفضائية بعناية في

غابات (سيبيريا) الضخمة البعيدة كل البعد عن العمران.. وسرعان ما اختلطنا بكم!!.. لم يكن حاجز اللغة أمرا صعبا.. فنحن نملك تكنولوجيا متقدمة جدا استطعنا من خلالها تعلم أهم لغاتكم قبل أن نصل إلى كوكبكم.. وقد اخترنا جميعا الحياة في منطقة الخليج بسبب مناخها الحار الذي يناسب أجسادنا.. فنحن لا نتحمل الطقس البارد نهائيا.. ولم يكن الاختلاط بكم أمرا صعبا.. فتزوير أوراقكم الرسمية ونقودكم أمرا هينا جدا بالنسبة لعلومنا المتقدمة.

سكت قليلا ليقول بهدوء حزين:

-هذه هي قصتنا باختصار شديد!!.

لم أنطق بحرف.. فقد أخرسني الذهول.. أخرسني تماما.. نظرت إلى ملامحه البشعة المخيفة.. لكنه والحق يقال.. بدا مسالما جدا وطيب القلب.. لا أعلم إن كنا نستطيع أن نصف مخلوقا فضائيا بأنه طيب القلب!!.. فلا أعلم إن كانت لهم قلوبا أصلا.

قطع الطبيب حبل أفكاري عندما قال:

-نسيت أن أخبرك أن عينيك تمتلكان قدرة فيزيائية لم يتوصل إليها الطب عندكم حتى الآن.. هذه المقدرة الفيزيائية هي التي جعلتك ترى أشكالنا الحقيقية!!.. هناك قليلون جدا من البشر يمتلكون هذه المقدرة.. بعضهم أبدى تعاطفه معنا والبعض الآخر حاول كشف أمرنا وانتهى به الأمر في مستشفى الأمراض العقلية لأن أحدا لم يصدق حكاية غريبة كتلك.

لم أجد بعدها ما أقول.. فقد نهضت من الكرسي مترنحا عاجزا عن الكلام.. وخرجت بعدها من العيادة متجها إلى البيت.. وعقلي يمتلىء بالتساؤلات عن عالمنا الغريب هذا والذي يجهل الناس معظم أسراره.

لقد قررت ألا أكشف السر لأحد بالطبع.. رغم أنني ظللت بين فترة وأخرى أشاهد تلك المخلوقات.. أحيانا في الأسواق وأحيانا أخرى في المؤسسات الحكومية.. متسائلا حتى هذه اللحظة إن كان أمرهم سينكشف يوما ما.. أم لا.

الوحوش

من الصعب تحديد نقطة البداية في قصتنا هذه.. من الصعب جدا!!!.. ربما هي تلك الفترة التي انتشرت فيها جرائم القتل بالقرب من الغابات المحيطة في المدينة.. فنحن قوم مسالمون جدا.. نعيش في مجتمع متقدم وجد حلولا لجميع مشاكله.. لولا هؤلاء (الوحوش)!!!!.. إنهم ليسوا وحوشا بالمعنى الحرفي.. بل هم أناس يشبهونني ويشبهونك.. لولا أننا أكثر حضارة ورقيا وثقافة.. بينما هم همجيون جدا.. قذرون مخيفون لا أعتقد أنهم يملكون وسيلة للتفاهم.

إنهم يعشقون القتل والتخريب.. فقد قتلوا منا العشرات دون ذنب أو جريرة.. ونحن نطاردهم ونقتل منهم من نقتل في كل حملة نقوم فيها لإبادتهم دون أن نعرف دوافعهم وراء ارتكاب تلك الجرائم.. بل ولا نعرف عنهم أي شيء سوى أنهم يقومون بعمليات انتحارية قذرة بين فترة وأخرى لقتلنا لأسباب نجهلها!!.. ربما هي طبيعتهم المتوحشة!!.. لا أعلم..

يرجح البعض أن هؤلاء (الوحوش) ليسوا سوى بشر تعرضوا لتجارب في الهندسة الوراثية من قبل بعض العلماء منذ قديم الزمان.. وتكاثروا على مدى التاريخ إلى أن جاء الوقت الذي خرجوا فيه من حدودهم في تلك الغابات الشاسعة وبدؤوا بالهجوم علينا.. أنتم تعرفون بالطبع أن تاريخ كوكب الأرض القديم مجهول تماما.. هناك أمم عاشت وزالت دون أن نعرف عنها شيئا.. فما الذي قد نعرفه عن هؤلاء (الوحوش) الذين ينامون تحت الأشجار وفي الكهوف ويأكلون الحيوانات القذرة؟؟!!..

لقد كنت ضمن الفريق الأمني الذي يطارد هؤلاء (الوحوش)!!!.. وكانت زوجتي تكاد أن تموت قلقا علي في كل مرة أذهب فيها لمطاردتهم وقتلهم.. لأنها تعرف جيدا مدى وحشيتهم.. فهم يقتلون كل من يقع تحت أيديهم دون نقاش!!.. لكنه عملي وهي تعي ذلك جيدا.

كانت حياتي تسير بهذه الصورة.. في كل شهر تقريبا يخرج الفريق الأمني إلى الغابات المحيطة بالمدينة في حملة لمطاردة (الوحوش) وإبادتهم.. كنا نريد إبادتهم فحسب من هذا العالم الجميل الذي لا يلوثه إلا وجودهم.. ودون أي محاولات لأسرهم..

وهي ليست مهمة سهلة إطلاقا.. فنحن نتحدث عن غابات شاسعة متشابكة الأشجار تمتد لعشرات الأميال حيث يعيش فيها (الوحوش) في كهوف ومخابئ من الصعب جدا اكتشافها!!!.. لذا ففي كل حملة نقوم بها كان يصاب أو يقتل بعض من أعضاء الفريق الأمني بسبب الأسلحة البدائية التي يستخدمها (الوحوش) والتي لا تتجاوز العصي والرماح البدائية والنيران!!!..

متى تغير كل شيء؟؟!!.. كان هذا عندما أعلنت القيادة أن قوة هؤلاء (الوحوش) قد ضعفت كثيرا قياسا بالسنوات الماضية بسبب الحملات القوية والمركزة التي نشنها عليهم بين حين وآخر.. بل ولاحظنا هذا بالفعل!!.. لاحظنا أننا ننجح بإبادتهم شيئا فشيئا.. فخسائرنا تتناقص وأعدادهم تقل يوما بعد يوم!!.. لذا فقد ذكرت القيادة أن حملتنا التالية ستكون الأكبر والأقوى للقضاء عليهم كلية!!.

وفي ذلك اليوم الذي لن أنساه أبدا.. استعد فريقنا الأمني بكل الأسلحة المطلوبة.. ليتجه إلى الغابة المحيطة بالمدينة في حملة كنا نتمنى أن تكون الأخيرة لإبادة (الوحوش) نهائيا.. كنت أمشي بين الأشجار الكثيفة المتشابكة وأبحث عنهم بتوتر شديد.. فعامل المفاجأة الذي يستخدمونه دائما

يربكنا.. فقد أعطتهم الحياة القاسية وسط الغابة سرعة وشراسة وقوة بدنية هائلة دون شك.. كما أنهم أذكياء جدا ولولا أسلحتنا المتطورة لما تمكنا من مطاردتهم بهذه الصورة وقتلهم.

توغل فريقنا الأمني في الغابة باحثا عن هؤلاء (الوحوش).. مضت نصف ساعة دون أن نجد أحدا منهم.. يجب أن ننجز مهمتنا في ملاحقتهم وإبادتهم قبل غروب الشمس.. فالبقاء في الغابة ليلا يعد انتحارا و.. لحظة.. لحظة!!!.. هل تسمعون هذا؟ !!.. هناك من يمشي بهدوء ويدوس على أوراق الشجر الصفراء المتناثرة في كل مكان في الغابة!!.. أسمع صوت تكسر الأوراق الجافة على الأرض.. هناك من يدوس عليها!!!.. أحدهم يحاول أن يقترب بحذر!!..

عندها فقط.. انفتح باب الجحيم!!!.. المئات من (الوحوش) انقضوا علينا مستغلين عامل المفاجأة.. إن هذا لم يحدث من قبل.. فنحن ندرسهم بعناية منذ سنوات طويلة جدا ونعرف أنهم لم يهجموا بهذه الأعداد الكبيرة من قبل.. هذا يزيدني قناعة أنهم على وشك الانقراض بالفعل.. يبدو أنه هجوم يائس بعد أن تناقصت أعدادهم إلى حد مخيف بسبب حملات الإبادة التي ذكرتها لكم.. كانوا ينظرون إلينا بحقد دفين وهم يمسكون بالعصي والحجارة.. بدا واضحا أنه هجوم انتحاري ربما هو الأخير من نوعه!!.

ورغم أسلحتنا المتطورة إلا أنهم - وبفضل عامل المفاجأة - قضوا على عدد كبير جدا من أفراد فريقنا الأمني.. لكننا استعدنا زمام السيطرة على الوضع.. وبدأت أسلحتنا تحصدهم حصدا.. و.. مهلا.. أحدهم يهرب!!!.. لن أدعه يفلت!!.. تركت زملائي وقد استعادوا تماما السيطرة على الأمور وبدؤوا يطاردون من تبقى من (الوحوش) الناجين!!.. إنني أطارد ذلك الوغد المتوحش.. وهو يجري بكل قوته.. أطلق عليه النار لكني لم أصبه بسبب تكاثف أغصان الأشجار حولي.. ظللت أطارده إلى أن دخل إلى أحد الكهوف المخفية بعناية.. فلحقت به غير مبال بالخطر.. هل هذا هو المكان الذي يختبئ فيه (الوحوش)؟ ؟!.. لا أعلم.

أنا داخل الكهف الآن بالفعل.. والكشاف الضوئي الموجود أسفل بندقيتي ينير لي المكان بصورة جيدة.. أسمع صوت نحيب!!.. هناك من يبكي بحرارة وينتحب خلف تلك الصخرة الكبيرة!!!.. توجهت إليه بحذر ويدي مطبقة على البندقية بقوة.. سأقضي عليه.. سأق.... التفت إلي (الوحش) فجأة ليحدق بي بحقد لا مبرر له.. إنه يبدو بشريا.. مثلنا تماما.. لكنه قذر للغاية وإلى حد لا يمكن تصوره!!.. يملك شعرا طويلا جدا وثيابه بدائية جدا وممزقة في أكثر من موضع حتى تكاد لا تعرف لونها الحقيقي.

ظللنا نحدق ببعضنا ثوان بدت دهرا قبل أن يقول بأسى وكراهية:

-عليكم اللعنة.. لقد قضيتم علينا جميعا!!!

هذا غريب.. لم أعرف أنهم يستطيعون الكلام أساسا!!!!.. وجدتها فرصة لأعرف شيئا عنهم.. فسألته ببطء شديد:

- لماذا أنتم بدائيون متوحشون هكذا؟ ؟!.. لماذا تكرهوننا؟؟.. لماذا تهاجموننا؟!.. من أنتم بالضبط؟؟.. هل أنتم بشر مثلنا؟؟..

نظر إلي بعينين متسعتين وهو غير مصدق.. ثم انفجر غاضبا وهو يقول:

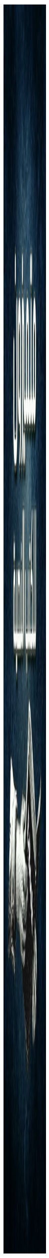
- عليكم اللعنة!!.. تسألني: من أنتم؟ ؟!.. أيها الوغد.. أيها الحقير.. نحن من صنعكم!!!.. إنكم مجرد آلات!!!!.. إنك إنسان آلي أيها الحقير ولست بشريا!!!.. نحن البشر الحقيقيون.. نحن

سكان كوكب الأرض الأصليين.. صنعكم أسلافنا منذ آلاف السنين.. منذ عام 7000 ميلادية!!!.. صنعوا بشرا آليين بذكاء صناعي وبرنامج كامل للمشاعر البشرية.. بل وصنعوا لكم وسيلة تتكاثرون بها دون أن يعرفوا فداحة ما يفعلون.. وشيئا فشيئا استحوذتم على كوكبنا وبدأ أسلافكم بقتلنا وإبادتنا حتى انهارت البشرية وتراجعت إلى الوراء!!.. بل وفقدت أجيالنا مع مرور السنوات قدرتها على الكلام.. حتى أصبح من يجيد الكلام منا قلة قليلة جدا.. إنكم لستم سوى آلات تجري في داخلكم الأسلاك أيها الوغد.. نحن البشر الحقيقيون... نحن........

لم يكمل كلامه.. فقد أرديته قتيلا في لحظة!!.. هذا الأحمق.. ما الذي يقوله؟ ؟!.. نحن آليون؟ ؟!.. إنهم هم المتوحشون.. هم الذين تلاعب في جينات أسلافهم أحد العلماء المجانين.. هم الذين يخالفون الطبيعة!!..

عدت بعدها إلى البيت أحمل لزوجتي بشرى القضاء على (الوحوش).. لا شك أن احتفالا كبيرا سيقام في الغد على مستوى المدينة لهذه المناسبة.. إن يوما حافلا ينتظرنا.. لكن يجب أن أرتاح أولا بعد ساعات من التوتر في الغابة.. ذهبت مع زوجتي إلى غرفة النوم.. ثم ضغطنا أزرار النوم الموجودة في أجسادنا.. على أن نستيقظ أوتوماتيكيا صباح الغد.. نمنا قريري العين بعد زوال الخطر.. وانقراض (الوحوش)!!.

(تم الكتاب بحمد الله)



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

فهرس المحتويات:

فهرس المحتويات:

الملاحظات

[←1]

(1) حقيقة

[←2]

(2) حقيقة

[←3]

(3) حقيقة

[←4]

(4) حقيقة

[←5]

(5) تم شرح النظرية بشيء من التفصيل في قصة (العائدون)

[←6]

(6) حقيقة مع الأسف

[←7]

(7) حقيقة

[←8]

(8) حقيقة

[←9]

(9) نحن نتحدث هنا عن النسخة القديمة من الفيلم من إنتاج عام 1966

[←10]

(10) حقيقة

[←11]

(11) ليوناردو دافنشي (1452 - 1519): أحد أعظم العبقريات التي أنجبتها البشرية، فقد أظهر (دافنشي) تفوقا مذهلا وعبقرية لا حدود لها في مختلف العلوم، كالهندسة، والجيولوجيا، والطب، والرياضيات، بل وكان عبقريا أيضا في مختلف أنوع الفنون كالنحت، والموسيقى، والرسم!! فهو من رسم لوحة (الموناليزا) الشهيرة الموجودة حاليا في متحف (اللوفر) في باريس، كما رسم لوحة (العشاء الأخير) الشهيرة، ويعتبره الكثيرون أعظم رسام في تاريخ البشرية، في حين يصفه آخرون ب.(رجل عصر النهضة) أي الرجل الذي قاد البشرية إلى التقدم العلمي!!!..لقد ترك (ليوناردو دافنشي) في مذكراته حشدا هائلا من الأفكار والاختراعات المدهشة في مختلف المجالات والتي تفوق عصره بقرون عديدة، فقد وضع هذا الرجل تصميم الهيلوكوبتر، والمظلة (الباراشوت)، وملابس الغوص، والسفن البخارية، والمدافع الرشاشة والآلة الحاسبة والدبابة، مع أفكار أخرى لاستخدام الطاقة الشمسية وغيرها من الخطط الصناعية والهندسية الكثيرة التي تحتاج لكتاب كامل لذكرها دون مبالغة!! وكل هذه التصاميم والاختراعات وضعها في القرن الخامس عشر!! أي قبل اختراعها بمئات السنين. وجميع العلماء الذين عاصروا (دافنشي) وقفوا عاجزين تماما عن فهم تصميماته واختراعاته بعد وفاته، ولم يبدؤوا بفهمها إلا بعد قرنين من الزمان، مما يدل على أن عقلية هذا الرجل قد سبقت بالفعل كل العقول الذي عاصرها.

[←12]

(12) في عام 1500 م كان عدد سكان العالم لا يتجاوز 400 مليون نسمة فحسب.. ولم تبلغ البشرية أول مليار إلا مع بدء القرن التاسع عشر.. وبعد 125 سنة فقط.. بلغت البشرية المليار الثاني.. تحديدا في عام 1925.. وفي عام 1969 أي بعد 44 سنة فقط.. بلغت البشرية المليار الثالث.. وبعد خمس عشرة سنة فقط بلغ سكان العالم المليار الرابع!!.. وفي غضون 30 عاما فحسب وتحديدا في عام 2007 أصبح تعداد البشرية أكثر من ست مليارات نسمة.. بالطبع هذا التزايد السكاني الرهيب على مدى قرن واحد فقط من الزمان سببه الرئيسي والحقيقي تناقص نسبة الوفيات بسبب تقدم علوم الطب وتحسين الوقاية الصحية.. وتشير التوقعات إلى أن تعداد البشرية سيصل إلى 8 مليارات نسمة في عام 2020.الخامس عشر!!

[←13]

(13) حقيقة